عَبَـقُ الموتَـةِ الصُّغرى

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع
٢٠١٨/٩٧٢١

بطاقة فهرسة

عبدالرحمن ، خالد
عبق الموتة الصغرى: رواية/ عبدالرحمن خالد، ط١ –
القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨
٢٥٦ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم
تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١٤٣-٤
١- القصص العربية القصيرة
أ – العنوان
٨١٣,٠١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠
مدينة نصر ـ القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف
محمد ضوه

التدقيق اللغوي
خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج
أحمد البسيوني

عَبَقُ الموتَةِ الصُّغرى

روايـة

عبد الرحمن خالد

إهـداء

إلى الراحلين والغُرَباء..

غرباء الروح والجسد، غرباء الوطن والأرض، غرباء الطّباع والطريق..

إلى الذين يبكون ويصلّون يومَ يغنّي ويلهو الجميع..

وإلى الذين لم يستطيعوا الرّدَّ ولو بكلمة، فاكتفوا بالصّمت..

سلامٌ عليكم.

إهداء خاص

إليكما..

أبي الذي..والذي..والذي..

أمي التي..والتي..والتي..

ولأن الحروف لا تتحمَّل؛

فإلى كل الـ «التي والذي » التي قِيلت وستقال فيكما.

[شكرًا بحجمِ كلّ شيء]

[ملحوظتان مهمتان]

- مكنون هذه الرواية خيالٌ واقعيٌّ بحت، وهو لا يمتُّ بأيّ صلةٍ لأي واقعٍ خياليٍّ صادف الحقيقة.
- لا تفكر كثيرًا في الملحوظة السابقة.

أن تحلمَ في زمنِ الكوابيس..

هذا يعني أنّك قُمتَ بجرمٍ لا يُغتفر.

الصورةُ الأولى

في شارعٍ عريضٍ يكتظُّ به المارّةُ ذهابًا وإيابًا داخل حدودِ مدينةٍ تجاريةٍ عريضةٍ تأتي إليها كلُّ الأجناسِ طلبًا لكل شيءٍ يخطر على بالك، ربما تكون مدينةً آسيويةً أو ربما أوروبية أو ربما حتى أفريقية..الأهمُّ في الأمر أنها ذاتُ صيتٍ، وأشياء أخرى.

بالرغم من كل ضوضاء هذه المنطقة، لم يجرؤ أيُّ بشرٍ على المرور أو النظر حتى لهذا الشارع الذي يكمن به مبنى لا أحد يعرف ما هو بالضبط، لكنهم يدركون هيبته جيدًا.

كان الليل منسدلًا يحكُمُ حُكمًا مؤقتًا بسجن الشمس في مكان آخر في بقاع الأرض المتناثرة، إن كنتَ ترى ما أراه الآن فتيقن من وجود سيارة «ليموزين» سوداء طويلة تقف موازية تمامًا أمام هذه البوابة العظيمة التي تحمل عدة كاميراتٍ للمراقبة التي تدور برقبتها بعين صقرٍ وسُرعة فهدٍ أسود، ذلك المكان المريع الذي يضجُّ برجالٍ مجهولي الهوية، يُغطيهم اللون الأسود،

ومدججينَ بأحدث الأسلحة التي وُجدَت على هذا الكوكب، بدوا كجنود المارينز. كانوا واقفين كرواسي الجبال أمام تلك البوابة العظيمة، اثنان منهم انفصلا عن البقية، كلٌّ في عكس اتجاه الآخر يرقبُ المارين بالقرب من ذلك السور الأبيض العالي مستعدين لأي حركةٍ مفاجئة. ترجّل من الباب الأمامي لتلك السيارة رجل مفتول العضلات، ذو بدلة سوداء لامعة ونظارة سوداء حُملت على عاتق أذنيه رغم سدول الليل - فهذه عادتهم ولن تفنى، توجَّه مُسرعًا نحو باب السيارة الخلفي بخطى ثابتة واثقة ثم فتح الباب سريعًا، ورفع يده إلى فمه بجهاز لا سلكي عُلّق في يده ليبعث ببعض الكلمات داخل هذا الجهاز الصغير فيظهر من البوابة الضخمة رجلٌ متوسطُ القامة، تبعثرت شعيرات بيضاء ذات لمعة خافتة على شعره الأسود المموج - الذي يضيف له صبغة سوداء كل شهر ولا يجدي هذا نفعًا، يمسك بيده القوية - رغم سنه التي تعدَّت الخمسين - حقيبةً معدنيةً فضيةً، ويسير بخطى سريعة متوجهًا نحو باب السيارة المفتوح ومن خلفه رجل بنفس زيِّه تقريبًا، ولكن يصغره ببضع سنين، يمشي وراءه كطفلٍ يمسك بيد أمه المسرعة التي تجرّه وراءها، وعندما وصل إلى الباب، التفت فجأةً للوراء ونَظَرَ نظرةً صلبةً جامدة إلى ذلك الرجل وراءه، ثم..

- لتقم بعمل اجتماع فوري كي نبحث في هذا الأمر عاجلًا، وادعُ جميع الأعضاء، لا تنسَ أحدًا.

سكت قليلًا ثم أضاف بنبرة غامضة هامسة:

- على الجميع الحضور.

- أمرُكَ، سيدي الرئيس.

عاجله الرجل بثبات ووقار، ثم انحنى احتراما وتراجَعَ بضع خطوات للخلف دون النظر إليه.

استلقى الرجل الذي يهابه الجميع في المقصورة الخلفية للسيارة الليموزين الفسيحة، وسكنت الحقيبة الفضية هي الأخرى على جانبه الأيسر، ثم أخرج علبة معدنية من جيب بدلته، بدت مصنوعة من الذهب فاقتلع منها واحدةً من سجائره الفاخرة ليشعلها ببرود وينفث سُحبًا دخانية كثيفة تنتشرُ في السيارة بأكملها، استراحَ في جلسته لثوانٍ ثم قال للسائق بنفاد صبر:

- ماذا تنتظر؟ انطلق!

تعثّر ذهن السائق من مباغتةِ الرجل، فانطلق سريعًا لتختفي السيارة تحت عباءة الليل والضوضاء، تتبعُها سيارةٌ أخرى تعمل على حمايتها؛ لتُزاحم السيارات الأخرى، وتختفي مع التيار.

***

تتساقطُ قطراتُ الماء الممزوجة بالدماء من سقف بائس مهترئ التهمته الأتربة. تسقط القطراتُ كالسيوف وكأنها تنتحر من بناية شاهقة لتطعن في

الأرض عدة طعنات متوالية بين أضلعها المتشققة فيصبح المكان ككهفٍ يقطُر من سقفه المياه.

ومن عنان السماء، تتقاذفُ النيازكُ الملتهبة بالرعب بكل ما أوتيت من قوة وهي تتناطح فوق هذا المكان، وفي ثانيةٍ توقَّف فيها الزمن عن العمل، انطلقت النيازكُ وكأنها اخترقت غلافًا جويًّا نحوه لتدمّر سقفه بلمح البصر.

الآن، للغرفة أربعُ جدران بلا سقف يضمُّها!

تتطاير الستائر من فوهة النافذة مصدرةً صفيرًا يرعب الأجساد ولو كانت خامدة، فتخرج الأرواح المتوحشة خلالها كي تجوب بقلوب ضعيفة لتجعلها تعيش أسوأ مخاوفها بالحياة.

عواءُ ذئاب.

أحدٌ ما يصرخ، لم يكن هذا صراخًا لأحدٍ فقط، هناك آحادٌ يصرخون ويصرخون. تتصاعد أصوات المناشير الكهربائية في أرجاء الغرفة التي أصبحت كمصنعٍ للخوف.

تتزاحمُ الأصوات. أصواتٌ وخيالاتٌ وظلالٌ لحيواناتٍ مفترسة تغزو حوائط الغرفة وتغوص بها. سربٌ من الغربان المهاجرة تطوف فوق غرفته

المميتة. تتراقصُ ثعابينُ الكوبرا القاتلة على أرضية الغرفة التي استحالت لغابة برية للمفترسات بكل أنواعها. ومن المكان نفسه، تتلاحم السيوف الغازية المحتدمة بين الرماح المتوقدة بالدماء مع أصوات انفجار بعض القنابل الذرية المطحونة بعنصر مشعٍّ قد يفجر كوكبًا أو مجرة. مزيجٌ من أصوات الصراعات الدامية والحروب التاريخية في إناء زجاجي مصمت قد انفجر لتوّه. يا لها من أصوات تُسيطر على الرأس، وتفجره.

أنا لا أفهم.. أين أنا؟! ومن أنا؟! وما هذا المكان؟! بعد لحظاتٍ مميتةٍ من الخوف والذعر يحتضن هذا الجسد الذي يعيش في الطابق الأخير من القبر الذي تغرقه الظلمة القابضة للأرواح رُكنَ غرفته ويهمُّ بالدعاء والرجاء لربه الذي يتمنى منه الهلاك لكي يخرج من هذا المكان الموبوء وينجو من هذا الجحيم اللعين.

ما هذا القبر الذي استيقظتُ ووجدت نفسي بداخله؟! يا إلهي! رأسي يُدمّر.. ما هذه الأصوات؟! تتردد الأسئلة داخل عقله المملوء بالدوار الغارق في الركن البعيد المظلم من الأوهام والمخاوف. تتعالى الضحكات الشريرة تُزيّنها بضع لعناتٍ أكثر شرًّا هامسة بأذنيه فتحبسه داخل دوامة الرعب كحبسٍ أبديّ.

وفجأة! إذ به يسمع صوت طرقات الباب وقد اقترب تحطُّمه، وكأن هناك أحدًا يهرب من الموت لُجُوءًا بالدخول إليه.

أحمق من ظن أنه سيهرب من قدره، لا يعلم أن الموت قد فتح له فمه بأنيابه كي يستقبله بعد تخطيه هذا الباب الملعون. وتعلو الطرقات المهيبة بصوتها لتجعل هذا الجسد يقطر عرقًا من جميع أنحائه، فيزيح عينيه نحو الباب الآخر فيراه مواربًا ينفتح وينغلق مع ترانيم الرياح الضائعة الممزوجة بخليط من الأعاصير والصواعق التي ترتعد لها السماء لتحدث قاصفًا شديدًا يكاد يُذهب السمْع، فيتزايد الخوف أضعافًا مضاعفة.

فجأةً، هُرِعَ يهرول نحو الباب ليلقي بنفسه خارج هذا الجحيم، خارج غرفته التي لم تعد غرفة صالحة للعيش، فلم يكن هناك اختلاف بينها وبين الجحيم الساخط.

لكن..رمقت عيناه قبل وصوله للباب الذي يأمل النجاة منه ثقبًا شديد الدقة يتوسط باب الغرفة، يتسع باستمرار ليتسلل منه الضوء لأرجاء الغرفة مُكتحلًا بألوان الشيطان الهائج، وهنا تتسع رقعته شيئًا فشيئًا ليضرب هذا الضوء الساطع عينيه فيغمره ويغرق المكان كاملًا.

لم يقدر على الرؤية حينها، فقد خمدت خلاياه وتبعثرت بانفجار مُدوٍّ خارج هذا العالم الحقير. ولكن بعد ثوانٍ باتت أقرب للسنين..انتفض جسده بعد رجوع الروح إليه.

عاد «سعد» من موتته الصُّغرى وقد أدرك وقتها أنه كان يعيش داخل كابوس ما. عادت روحه لتُقذف بجسده بعد أن غَرقَ بكابوسه الذي كانت مهمته المفضلة هي العبث بالأدرينالين الذي تُفرزه غُدته الكظرية. شرع يمسح العرق المُتسرب من جبينه العريض بعد أن أغرق وسادته التي استحالت بُحيرةً من العرق. اعتدل جلوسًا على سريره المبعثر، وأُذيناه وبُطيناه يتسابقان عدوًا في مضمارٍ ضيق بين عظام صدره الضعيف، وأثناء هذا السباق الطويل أخذ البطين بضخٍّ بعض الدم لخلايا جسده المرتعش. نبضات قلبه تتسارع بين اللحظة والأخرى.. فيسمعها كطبل روماني في ساحة القصاص.

ولكن..

هو..

مَن..

سيُعدم.

نَفَسُه القصير لا يتحمّل. شهيقٌ دون زفير، ثم زفيرٌ دون شهيق.

أخذ يبحث بعينيه في نواحي غرفته المظلمة نسبيًّا حين رمقت عيناه مجداف الساعة الصغير يُشير إلى ما بعد رقمين من الواحد، إنها الثالثة بعد منتصف الليل، صوت زفيره القاتم يغطي أرجاء المكان.

لم يفعل أي شيء يُذكر سوى أنه استلقى على سريره ليحاول النوم بهدوء، ويُسقط بما تبقى من ساعاته القليلة في النوم بلا كوابيس.

ثم صَمْت، صمتٌ تامٌّ.

يعيشُ سعدٌ ووالدته في شقة متواضعة داخل حارة من حارات فيصل القديمة، تلك الحارات المظلمة الغارقةٍ في اللون الأسود الحالك، الأسود فقط دون سائر الألوان. ليس هناك وجودٌ للمصابيح التي تُعشش معلقةً بأعناق تلك الأعمدة التي من المفترض أن تُنيرَ الطُّرقَ للمارة بشوارعِ هذه الحارة السوداء.

لكن لا، في هذه الحارة، قُتلت المصابيحُ شنقًا. لا وجودَ لهذا الشيء ليُنيرَ شوارع هذه الحارة المُكحلة سوى مصباحٍ وحيدٍ أمام بنايةِ سعد القديمة.

***

- صباح الخير.

قالتها والدة «سعد» ذات الخمسة والستين ربيعًا وهي تربت على كتفه وتمسح خصلات شعره الناعمة بكل ما تحمله من حنان وعطف تجاه ابنها الوحيد «سعد»، تلك المرأة التي كافحت بعد موت زوجها كي تُعوِّض ولدها أبًا حنونًا ورفيقًا سؤولًا وأُمًّا تحتضنه بين ضلوعها وتمنحه قلبها إن استطاعت رغم وهنها بعد أن بلغت من العمر الكثير والكثير.

تناول طعام إفطاره وذهب لعمله ليحارب تكتُّلَ السكان ومشكلات المواصلات التي تكتنفها القاهرة هي ومن مثلها في عالمٍ عليك أن تكدح فيه لتجد لقمة العيش، وأحيانًا لن تجدها.

استقلَّ سعد «الميكروباص» المعتاد الذي قد دُفن عدة مرات وأخرجوه من قبره وقد أكله الزمن. جلس بالمقعد الأمامي مع السائق ليذهب للعمل بالشركة التي يعمل لديها داخل حدود مدينة «شبرا».

عاد سعد من العمل منهكًا في الساعة الثامنة مساءً بعد صراعٍ مع المواصلات كي يعود لأمه جثة هامدة جراء الجهد المتواصل.

يومٌ مملٌّ وأحداثٌ ومشاهد أكثر مللًا يعيشها هذا الشاب ذو الخامسة والعشرين عامًا منذ تخرج في كلية التجارة، كلية الشعب المصري كما يُقال، ولكن هنا السؤال ينطق بلهفة عمياء: هل ستتغير حياة ذلك الشاب التعيس الوحيد إلى حالٍ آخر؟! هو الآن يحتضن وسادته التي غرقت بعرقه في أثناء عيشه ذلك الكابوس الذي زعزعه ليلة البارحة.. ومن ثم وقع في حفرة نومٍ عميقة..

كما كل يوم.

***

– شيل يا بني الغطا من على راسه.

قالها ببرود تام وهو يضع ساقه اليسرى على اليمنى وغليونه بين شفتيه النحيفتين، فرد أحدهم:

–حاضر يا فندم.

سكت قليلًا ثم قال بتعثّر:

– بس ده لِسَّه متخدر!

– خلاص فوّقُه!

قالها الرجل آمرًا بعصبيةٍ، فعاجله الآخر باقتضاب:

– تحت أمرك يا فندم.

***

في هذا المكان الذي لا أحد يعرف كينونته أبدًا، كان الظلام مَلِك المكان، أعدادٌ قليلةٌ من الرجال الذين يرتدون أغطيةً سوداء على رؤوسهم، كانوا يتوزعون في كل ركن من المكان بأسلحةٍ سوداء تبرُقُ في الظلمة، كان الجوّ صامتًا هادئًا حين كان قائد هؤلاء الرجال يضع قدميه على مكتبه وهو ينظر للسقف، بالإضافة إلى أنه لم يكن مثل رجاله يرتدي شيئًا أسود على رأسه،

بل كان أصلعًا! مرت ربع ساعةٍ، ثم جاء رجلٌ ضخمُ الكتلة، قاتمُ الملامح نحو ذلك القائد الأصلع لينطق بصوتٍ أجشّ:

– فاق سعادتك.

– طب هاتوه على مكتبي.

***

وضعوه في تلك الغرفة الظلماء، ثم ذهبوا وتركوه وحيدًا يلاعب ظلامه الدامس. دار ببصره في تلك الغرفة الموحشة وعيناه تريان بصعوبةٍ شديدة، فقط مجرد مصباح صغير مُعلّق بالسقف فوق رأسه تمامًا، لكنه لم يستوعب أي شيء يُذكر. أين أنا؟! هل ارتكبتُ فعلًا أحمق أم ماذا؟! هل قتلتُ أحدًا؟ ربما! هل أنا مُختطفٌ إذًا؟! ليس ببعيد! أم أنني مُت ولم أُدرك ذلك؟!

أخذ يستنجد ويستغيث من مكانه لعل أحدًا يسمع صراخه العاتي فيأتي وينقذه من هذا المكان المجهول، لكنه لم يدرك بعد أنه مقيد بالكرسي الذي يجلس عليه وقد شُلّت حركته تمامًا ولم يعد يشعر بأطرافه. انقطع صوته بعد أن أدرك أنه لا فائدة من ذلك.

فُتح بابٌ أمامه فجأةً وقد تسلل الضوء للغرفة التي تشبه زنزانةً تحت الأرض، فأغلق عينيه بسرعة خوفًا من الضوء الشديد الذي انصبَّ نحوه.. سمع صوت طقطقة كعب حذاءٍ يدور من حوله إلى أن استقرّ أمامه.

- أهلًا أهلًا بضيفنا المميز!

قالها بنبرة غامضة مخيفة وهو للمرة الثانية يشعل غليونه ببطء، فرد سعد بذعر واضطراب:

- أنا فين؟ انت مين؟ بتعملوا فيّ كده ليه؟ أنا فيين ياعم انت؟!

جعل يصرخ بشدة ولم يهدأ، فأشار له الرجل بسبابته، ثم:

- ماتخفش يا أستاذ سعد، اهدا وانت تعرف كل حاجة.

- بس انا فيـ..

-إنت في الجنة.

قاطعه الرجل الأصلع وهو يقولها بهدوءٍ تام لا يخلو من بعض السخرية، ثم ارتسم شبح ابتسامة على وجهه.

تمتم سعد بحروف لم يستطع ضمّها ببعضها البعض كي يخرج منها بكلمةٍ مفيدة، قُطع لسانه حينها، تزلزلت ملامحه، لَم يدرِ ماذا يفعل، ولِمَ هو هنا وماذا يعني ذلك الشخص الأصلع ذو الجبهة العريضة التي نُقش عليها كلمة(Puppet) بقوله إنه في الجنة.

- هو هو أ أ أنا بـ بـ بحلم.. أنا بحلم صح؟!

ألقاها سعد بريبة وخوف شديدين مع ابتسامة كاذبة وعينين زائغتين خائفتين، قالها وقد تمنى أن يكون مجرد كابوس لئيم وقد عكر صفو نومه، رد عليه الرجل وهو يضحك ضحكات متقطعة شريرة:

- ماعتقدش يا أستاذ سعد ناصر عبد الحميد الكاتبي، في الحقيقة إنت لسه صاحي أصلًا!

تغيرت ملامح سعد التي غزاها الخوف وعدم الفهم، وقد عادت الرعشة الشديدة لتسري داخل جسده الضعيف، حينها بدأ يصُبّ عرقًا في كل مكان، بعد أن أدرك أنه ليس داخل حلم كما كان يأملُ.

- إنت عرفت اسمي إزاي؟!

قالها سعد برجفة خفيفة في صوته، فرد عليه الرجل بغموض وابتسامة خبثٍ طُبعت على وجهه:

- أنا عارف أي حاجة عن أي حد.

مقدمةٌ لم تأتِ في البداية

ربما لا أملكُ ما أقول، لكنّني لا أصمتُ داخلي أبدًا، هذه هي الخطة في أن أعيش: الصمت ثم الصمت، ولهذا..دائمًا ما أكون في هذا المكان كلّما كان القمر بدرًا راسخًا في الفضاء، صوتُ ارتطامِ الأمواجِ الهادئة على الشاطئِ كان بمنزلة علاج لمرض لا يزال يغزو كل منطقةٍ في جسدي، أنا أعلم جيدًا أنني سأذهب، وأعلم أيضًا أنني سأندثر يومًا ما قريبًا تحت التراب كما ذهبتِ أنتِ، كلانا كان مريضًا بنفس المرض، كلانا كان يعالجُ جسدَه على سرير ناصع البياض، كلانا كانت الكيماويات تُضخّ في شرايينه، فيبدأ التصدُّعُ. كلانا وعد الآخر بأننا سنُشفى معًا، وستنبتُ لدينا تلك الشعيرات السوداء – التي تتخللها بضع شعيرات بيضاء – على رؤوسنا أخيرًا، بعد مرور الكثير، لكنكِ قط لم تفِ بوعدكِ، كلانا كان واحدًا، وكلانا كان يُعالجُ روحه في هذا المكان، كلانا كان يُمسكُ بيدِ الآخر ويبتسم، كلانا لم يكن حزينًا قط، كلانا كان ينبضُ قلبه في قلبِ الآخر، فلماذا ذهبتِ إذن وتركت «كلينا» يصبح اثنين؟!

ربما أكون مجنونًا كي أمشيَ عاريَ الجذع، حافيَ القدمين على هذا الشاطئ حين احتلّ الشتاء بلادي، كم أحبُّ هذا الشتاء حقًّا رغم أني أكره أن تصطكَّ أسناني بعضها ببعض! وكم سأحب أيضًا أن أذهب فيه!

يسيرُ قطارٌ من الدموعِ على وجنتيّ كلما جلستُ أتأملُ القمر، قطارٌ هادئٌ يسير، وفجأةً تُغيّرُ ترانيمُ الرياحِ الباردةِ وُجهتَه فيسقطُ بعضه سقوطًا حرًّا وبعضه يجفّ، هناك أحدٌ ما لا يريد دموعًا على وجنتيّ هاتين، أزمّ شفتي وأنظرُ إليكَ أيها القمر، ربما أجدُ من محبوبتي فيكَ شبهًا، وربما كنتَ أنت محبوبتي طوال الوقت، أُمسكُ حبّات التراب بيدين طاهرتين، أرفع تلك الحبّات عاليًا لأضعها أمامي كي أحجبَ بها القمر، لا أعلمُ لِمَ أفعل هذا في كل مرةٍ؛ ربما لأنني كنت أريد إظهار نهايتي أمام عيني، وربما لأنني همتُ عشقًا في التراب.

أما بعدُ، فهذه أمنيتي في كل شتاءٍ يغدو ويروح: أن أذهبَ إليكِ في الموعد نفسِه، أن أذهبَ إليكِ في الشتاء.

***

انتهيتُ من جولة استرجاع الماضي وسكب الدموع تلك، انتهت أحزاني الآن، لا بد أن أكون سعيدًا كي أكملَ حياتي وأعودَ لمنزلي، لا عيبَ في أن يسكن الوجع القاتم ضلوعي، لكن الأهم أن أظل مبتسمًا أمام الناس! أنا

في الحقيقة رجلٌ كئيب، رجلٌ متشائمٌ غير متفائلٍ على الإطلاق، ربّما أكون مكروهًا لديك، لكنني لا آبه بالحقيقة.

قمتُ من فوق أرض الشاطئ، ثم أخذتُ بيميني حذائي الأسود وبيساري قميصي الأبيض، انطلقتُ متوجهًا نحو سيارتي السوداء بعدما جعلتُ قميصي على كتفي اليُسرى، وصلت، فتحتُ باب السيارة ثم ارتديتُ قميصي المهترئ سريعًا لأرتمي خلف المقود، ظللتُ قليلًا أنظر للسماء، وما زالت نسمات الهواء تخبطُ وجهي الساكن وشعري الأسود المبعثر، ثم ابتسمتُ ببلاهة.

ارتديتُ حذائي سريعًا وأدرتُ مفتاح السيارة ليخرج صوت المحرك غاضبًا وكأنه تضايَقَ لتركي إياه مدة ليست بقصيرة، ثم انطلقتُ نحو المنزل، نحو ذلك المكان الذي لا أخرج منه أبدًا سوى للعمل، وصلت للمنزل بعد عدة دقائق، خرجت من السيارة وصعدتُ السلالم ببطء حتى وصلت لبابي المنشود الذي كان راسخًا في الطابق الثالث، أدرت المفتاح، ثم سرتُ ببطء نحو الداخل تجاه الأريكة العريضة لأرتمي عليها دون أن أنوي خلع حذائي، ولم ألبث قليلًا إلا وقد هبطت كل جفوني سريعًا لأسقط في نومٍ سحيق، وحيدًا كعادتي.

***

توجّه الطبيب ذو الطول المتوسط والشعر الأسود الفحمي سريعًا بخطوات واثقة نحو غرفة مريضٍ ما يتابع حالته، ويهتم بها على وجه الخصوص، طرقَ الباب ثم دخل مبتسمًا متفائلًا نحو مريضه الجالس على المكتب، حيث كان في حوزة المريض ورقة وقلم، غريبٌ أن يملك مريضٌ مكتبًا في غرفته بل ورقة وقلمًا أيضًا!، نظر له المريض بتوجّس وقد شعر بالمفاجأة، طلب الطبيب الورقة التي كان يكتب بها المريض فأخذها بلطف مبتسمًا، وتمعّن فيها قارئًا ولم يلبث كثيرًا إلا وقد تغيّرت ملامحه للغضب تدريجيًّا، ثم صرخ غاضبًا:

- أرجوك يا حسن، كُفّ عن هذا الهراء، أنت لست مريضًا بالسرطان، ولن تموت أيضًا، لا توهم نفسك بهذه الأشياء الغريبة، أنت أقدم مريض في هذا المشفى! أنت هنا منذ أربعة أشهر، ولم يحالفك الحظ ولو مرةً لتكتب شيئًا سعيدًا، أو حتى حالفك في ابتسامة فقيرةٍ لمن تعيش معهم! لديك موهبة الكتابة..ونحن هنا نريد علاجك بواسطتها، لهذا يجب أن تكتب شيئًا يمحو كآبتك الحادة التي تؤثر في صحتك كثيرًا! يجب أن تكتب شيئًا سعيدًا، ينبغي ذلك، هل تفهم؟!

أومأ حسن بالإيجاب دون أن يغير ملامحه، فأكمل الطبيب قائلًا بهدوء وبسمة بعدما شعر بأنه فعل خطأ بتعبيره عن غضبه بهذا الشكل:

- حسن، صديقي، نحن نقدّر حزنك على زوجتك «جميلة »، نحن نشتاق إليها أيضًا، لكنها في مكانٍ أفضل الآن، الجميع يحبّك، ولهذا نريد أن نجعل منك رجلًا سعيدًا يبحث مرة أخرى عن الحياة والأمل لا عن الموت والألم، لذا هلّا تساعدنا بعض الشيء؟!

ابتلع حسن ريقه وقتما كان يستمع للطبيب وهو ينظر للنافذة المغلقة، ثم وجّه نظره للطبيب الذي انتهى من حديثه، ومن ثم باعَدَ بين شفتيه قليلًا محاولًا الكلام، لكنّه لم يستطع، واستسلم لليأس، فضمَّ شفتيه وأومأ للطبيب المبتسم الذي يُدعى «عمر» بالموافقة.

***

سار الطبيب عمر نحو الباب تاركًا المريض حسن ينظر لسقف الغرفة ساكنًا، وبعدما خرج الطبيب من الباب، بحركةٍ مفاجئةٍ هُرع حسن نحو القلم وأخذه غاضبًا وهو يصرخ ليضرب به معصمه الأيسر محاولًا فعل شيءٍ ليس بجيدٍ على الإطلاق، سمع الطبيب صراخه فركض سريعًا نحو غرفة حسن ودخلها، فوجد الطبيبُ دماءَ حسن تملأ المكتب وهو يحاول مرة أخرى أن يضرب معصمه، فصرخ قائلًا للممرضين ولمن بالمشفى وهو يمسك بيد حسن مانعًا الدماء من الانهمار، ومانعًا إياه هو أيضًا من الحراك:

- النجدة! النجدة! حسن يموت، أسرعوا بالمساعدة! أسرعوا!

ما إن أنهى حروفه إلا وقد قُلب المكان أرضًا على سماء، ودخل الغرفة فوجٌ من أطباء الطوارئ والممرضين؛ ليؤدوا عملهم سريعًا وبحذر محاولةً منهم لوقف النزيف.

الآن، حسن بين الحياة والموت.

إن كنتَ لا تريدُ إقناعَ أحدٍ، فحاولْ أن تسبّبَ له الارتباك

سَمِعَ صوتَ رنينِ هاتفه، فأخرجه ببطءٍ من جيب بدلته السوداء، ثم نظر إلى الشاشة ليجد كلمة: (**Unknown**).

ألقى نظرةَ ريبة وشكٍّ لم تخلُ من بعض القشعريرة التي قد سرت في جسده، ثم وافق على الاتصال بعد تردد. استغرق ثانية أو ثانيتين كي يترك المقود للسانه المتمكن، ثم نطق:

- ألو.. مين؟!

- شايف البار اللي قصادك ده؟!

- مين بيتكلم؟!

يبدو لك أنك عندما تقطع شرايين يدك وتجعلها تنزف بشدة فسوف تموت سريعًا لا محالة، فبدت له طريقةً سهلةً للانتحار، لكنه لم يدرك أن بعض الهراء المنتشر لا يفعل هذا بالمرء أبدًا. كان من حُسن حظه أن الأطباء أتوا في الوقت المناسب، هو يجلس الآن في الغرفة الانفرادية المُبطَنة التي لن يستطيع فيها معاودة الانتحار مرة أخرى مهما يفعل، يده اليسرى تغطيها الضمادات، وجهه اليابس تغطيه التجاعيد، وروحه البائسة تغطيها الآفات، كان ذلك الرجل الأربعيني ذو الشعر الأشعث الطويل واللحية المتشابكة مسندًا ظهره للحائط، لا يعلم لِمَ فعل هذا، ولا يعلم لِمَ ظَلَّ حيًّا حتى الآن، أمر الطبيبُ عمر الممرضين والمَمرضات ألّا يخرج حسَن من هذه الغرفة مدة ثلاثة أيام حتى تستقر حالته الجسدية والنفسية، زاد كُرهه للحياة المعشار، وهو الآن يريد أن يُنهي حياته البائسة تلك في أقرب وقت حتى تسنح له الفرصة مرة أخرى.

***

انتهت أيامه الثلاثة بسلام، وحسن لا يبرح مكانه قط سوى للطعام، وأحيانًا لا يفعل.. وقتما كان عقله متشابكًا وتفكيره مبعثرًا دخل عليه الطبيب عمر مبتسمًا على غير المتوقع مما فعل، توجه نحو حسن ثم جلس بقربه بهدوء، وقال بصوت مفعم بالأمل:

- حان وقت الذهاب.. ما رأيك أن نتناول طعام الغداء معًا؟!

نظر له حسن بعدم اهتمام، ثم أومأ له بأن لا، فـأكمل الطبيب وهو يزفر:

- حسنًا، أنت الآن طيرٌ طليق، لكنني أظنُّ أنه في يومٍ ما سنجلس معًا على نفس طاولة الطعام.

أنهاها ببسمة، ثم ذهب في طريقه للخارج، وعندما خرج دخل اثنان من الممرضين إلى حسن وأخذا بيديه نحو غرفته..مرة أخرى.

***

الصورة الثانية

من هواء النيل المخترق للأجساد الذي يبعث الطمأنينة في النفس والروح كان هذا رجل يقف بشموخ تتخبطه نسمات الهواء على رصيف الكورنيش، أنيقٌ هو، رجل شرقي بملامح ثلاثينية، حليق الذقن بشعر رأس مموج أسود فحمي، وقوام ممشوق مفتول بالعضلات، تقاسيم وجهه تظهر الطيبة والثبات والشدة في الوقت نفسه، بيدَ أن بدلته السوداء اللامعة أعطت له مظهرًا جذابًا يوحي بشخصية مهمة.

سار خطوات ثابتة يستنشق الهواء البارد، يفكر في نفسه وحياته وما هو قادم وسيقابله. سمع صوت رنين هاتفه فأخرجه ببطء من جيب بدلته السوداء، ثم نظر إلى الشاشة ليجد كلمة: (Unknown).

ألقى نظرة ريبة وشك لم تخلُ من بعض القشعريرة التي قد سرت في جسده، ثم وافق على الاتصال بعد تردد.

استغرق ثانية أو ثانيتين كي يترك المقود للسانه المتمكن، ثم:

- ألو.. مين؟!

- شايف البار اللي قصادك ده؟!

- مين بيتكلم؟!

ألقاها الأنيق ذو البذلة السوداء بقوة وتماسك، فرد الآخر:

- مش مهم مين بيتكلم.. قابلني هناك الساعة ٢ بالليل النهارده..

سكت قليلًا ثم أضاف:

- تعالَ لوحدك.

قالها المجهول بلهجة صارمة ولم ينتظر ردًّا حتى.

نظر «حاتم» إلى الهاتف، نعم هذا اسمه، حاتم، نظر إلى الهاتف ليرى أن الغريب قد أغلق المكالمة في وجهه.. المعتوه!

لم يقدر «حاتم» على استيعاب أنه قد أتاه اتصال من هذه النوعية مُنذ قليل، فقد أخذ إجازة طويلة منذ فترة، ويبدو أنها كانت مؤقتة. بعد دقائق قليلة قضاها واقفًا، وبين شفتيه الحادتين سيجارٌ فاخر، يقابل الهواء بوجه جامد لا يقبل الحراك.

ترك حاتم رصيف الكورنيش وصعد لأعلى ليسير على الطريق ثم أشار بيده القوية - التي تحمل بين أصابعها خاتمًا فضيًّا يتوسطه حجرٌ ذو بريقٍ أحمر وقد نُقش عليه حرفُ الـ « K » الإنجليزيّ - إلى سيارة الأجرة ثم صعد إليها، واختفى حين اختفت الشمس معه بدورها.

في الساعة الثانية إلا الربع بعد منتصف الليل، كان حاتم جالسًا في سيارته الحديثة، المرسيدس (S 200) سوداء اللون، ينظر إلى ساعته الذهبية «الروليكس» الأنيقة ذات اللمعة الخافتة.

قتله الفضول. لم يلبث قليلًا إلا وقد حضرت الثانية بعد منتصف الليل، ترجّل من السيارة وعدل هندامه ثم اتجه بقدم واسعة نحو الكازينو المطلوب ليغرق في الأصوات المنبعثة من داخله وألوانه الخافتة. أحمر، أصفر، أخضر، كلها ألوانٌ كانت تزين تلك الصالة الكبيرة التي تعجُّ بالجالسين داخل المكان، وبالطبع كان الجالسون من الطبقة الأولى -نفاقًا- من الشعب وخليجيين وأجانب من بلدان عدة منهم رجال أعمال وإعلاميون ومشاهير وفنانون وغيرهم، كلها أقنعة ..وتبًّا للأقنعة!

بعد أن وصل حاتم إلى المكان المقصود، أخذ يبحث بعينيه عن المتصل الغريب ومكالمته الأغرب -ليس بالنسبة له بالتأكيد.

التقت عينا حاتم برجل في الخمسين من عمره فأشار له الرجل بأن تعالَ، مشى الأنيق ذو البدلة السوداء مشيةً هادئة واثقة حتى وصل إلى الرجل المجهول الذي يغطي الظلام الحالك وجهه لتظهر منه يد فقط وبين أصابعها سيجار فاخر وخاتم ذهبي.

- اتفضل حاتم بيه.

- شكرًا.

رد عليه حاتم وهو يبتسم بابتسامة مُصطنعة، فتابع المجهول:

- نوّرت المكان..وحشتنا يا راجل.

النفاق، كم يكرهُ حاتم النفاق، لم يرد حاتم أو يتفوَّه بأي كلمة قط، ألقى فقط نظرة إلى الرجل الجالس أمامه متمنيًا خيرًا عندما ينتهي من الحديث.

- عندنا هدف.

قالها العجوز الخمسيني الذي لم تظهر عليه أي أشكال للسن التي قد بلغها أو حتى نصفها ببرود شديد، فرد حاتم باقتضاب وتلقائية:

- أنا بطلت خلاص الشغل ده.. آسف جدًّا.

هَمَّ حاتم بالرحيل لكن استوقفه العجوز الصغير قائلًا:

- حاتم.. استنّى.

قذف له منديلًا وكتب عليه رقم «واحد» وبجانبه ستة أصفار، عندما رأى المنديل زاد اهتمامًا وإن كان يريد إخفاءه، ولكن فضحته عيناه.

- انت كنت في إجازة مش أكتر.

قالها الرجل مبتسمًا بظفر، فنطق حاتم ببطء:

- الصورة والعنوان؟

ابتسم الرجل لرد فعل حاتم، ثم سلمهما الرجل المختفي وراء الظلال إلى رجل الدراكولا في ظرف أبيض سميك.

بعدها التقت قدما حاتم بالأرض الحمراء المرقعة بالأسود وقد خرج من المكان ليقابل الرياح الباردة بنسيمها الخام المريح.

ارتمى داخل سيارته الأخّاذة وأخذ يتنفس الصعداء ومن ثم أدار محركها ليختفي بين ازدحامات القاهرة الموحلة.. الجميلة.

***

في غرفته المتواضعة داخل حارة من حارات حي «فيصل» القديمة، وقتها كانت أصوات العصافير تُعلن عن بزوغ يوم جديد مُزيَّنٍ بشمس الشروق. شعر سعد بصداع يفتك به، فأخذ يتمطع بصعوبةٍ كما لو أنه يعاني تكسرًا في العظام نتيجة كابوسه القارص.

شرع يتنفس أنفاسه الأولى في ذلك الصباح، ولكنه لم يبقَ قليلًا على حالته، قفز من فوق سريره المُشتّت والتقط منشفته الخاصة من فوق الكومود القريب وذهب في طريقه إلى الحمام كي يغسل أسنانه ويتوضأ ليؤدي صلاة الصبح عوضًا عن الفجر الذي غاب عنه منذ أتته الكوابيس الغامضة.

لم يذهب إلى العمل في ذلك اليوم، فقد قرر أن يأخذ هذا اليوم إجازة متوفرة من ضمن عدد أيام إجازاته الاعتيادية.

بعدما انتهى من صلاته وأموره الأخرى وهو يسير داخل الطرقة ليصل إلى الصالة رأى أمه ترتدي نظارتها العتيقة وتخيط قطعةً من القماش، تلك كانت المتعة الوحيدة لها ولكل الجدّات والنساء في ذات عمرها، أشار لها سعد بأنه جائع، فأومأت له بأن بالطبع مبتسمةً ثم تركت ما في يديها، وذهبت للمطبخ لعمل طعام الفطور، ظل سعد جالسًا على الأريكة غارقًا في أفكاره مدة طويلة، ومع ذلك فقد حَمِد الله أنّ ما كان فيه منذ قليل كان كابوسًا غبيًّا وانتهى.

وهو جالس يفكر في كابوسه وأحداثه الغريبة قاطعت أمه حبل. أفكاره:

- الفطار جهز يا سعد.

أخذ منها الطعام وشكرها، فهمَّت بالرحيل كي تقوم بعمل القهوة، لكن سعد أمسك بيدها وهو يقول:

- سيبك من القهوة دلوقتي.. أنا عايز اقعد معاكي شوية، عايز أكلمك في موضوع.

استغربت الأم فِعل ابنها، فردت بلهفة:

- إيه يبني خير؟ لقيت بنت الحلال؟!

سكت سعد قليلًا وكان ينظر إلى الأرض ويبتسم، فرد بعدما ذهبت ابتسامته:

- لا يا أمي، مش عارف...بقالي يومين بحلم بحاجات مش كويسة وغريبة في نفس الوقت.

صمت ثانيةً.

- مش عارف أنام!

- أكيد أنت محسود!

- هتحسد على إيه يا أمي بس، ده أنا لا ليّا ولا عليَّ.

ابتسمت الأم وهي تضرب كتفه ممازحة وتقول:

- إنت أحسن من الناس كلها.. ده انت ابني يا ولا.

ابتسم سعد هو الآخر واكتفى بالصمت وبانت ملامح الحزن على وجهه فحزنت الأم لحزنه، ولكنها لم تيأس، بل تزحزحت على الأريكة حتى صارت ملتصقة به ليتحرك لسانها بعفوية:

- بقولك إيه.. ما تيجي أرقيك؟

لم تتبدد ملامح سعد ألبتة فقد عَلِم أن هذا بالتأكيد ليس حسدًا على الإطلاق، وإن كان، فهو لم يعتد فِعْل ذلك، ولكنه أراد أن يريح أمه، فابتسم

وهزَّ رأسه بالإيجاب، ابتسمت الأم هي أيضًا وأمسكت رأسه بحنان ودفء وأشارت بأن يجعل رأسه على فخذها، وعندما رفض..

- تعالَ يا ولا ما تتكسفش!

ضحك ضحكة قصيرة خافتة، ثم هز رأسه واستسلم، مال برأسه نحو الدفء، دفء الأم الذي ليس له مثيل، وشرعت الأم بقراءة الرقية الشرعية على ابنها سعد، استغرق منه الأمر دقيقة أو دقيقتين فقط.. فقد كان منهكًا منذ البارحة، عمل، كابوس، ضوضاء، لا بد أن يكون منهكًا.. منهكًا جدًّا.

ولذلك فقد سقط في نومٍ خفيف، لكنه في الحقيقة لم يكن خفيفًا على الإطلاق.

جاءه صوت أحد الأعضاء يُسمّى «الحقد» بنبرة واثقة عاقلة:

- صدقني سيدي الرئيس، إنهم ضعفاء إلى أقصى حد، ولكن المشكلة تكمن في أن هناك مجموعة من الناس لا تكلّ ولا تملّ حتى توصل الإدراك والحقيقة لعقول باقي الشعب قليل العلم، نحن إن تمكنا من إقامة حصار الدمار التعليمي والديني والترفيهي والثقافي عليهم سنفعل بالمثل مع باقي الدول الأخرى الضعيفة، فمصر إن نُكِّسَت نُكِّس الباقون.

أرضٌ طويلة وأشجار أطول، كان الطريق مُمهدًا بالجمال، زهورٌ بكل أنواعها على الجانبين من ذلك الطريق، العصافير ترسم في السماء بأجنحتها وتغني الألحان بصوتها الرقيق كموسيقار في أوج نشوته، كان في نهاية ذلك الممر الممهد بالأحجار: الأحمر منها والأصفر عرشٌ، عرشٌ كبيرٌ عظيمٌ مُرقَّعٌ بالجواهر ومُزيَّنٌ بالورود، وعلى مقعد ذلك العرش، كانت هناك قطة صغيرة بيضاء اللون تحمل عينين زرقاوين، وفي هذا الوقت، كانت القطة تتمدد وتتمطع على ذلك العرش العظيم المخيف من جماله.

كان سعد متحجرًا في مكانه في بداية ذلك الممر الطويل، لا يصدق ما تراه الأعين، هل هو في الجنة؟ كانت عيناه تحملان الذهولَ على أجفانها وقليلًا من البهجة والفرحة في الوقت نفسه، لكن لم يستمر ذلك طويلًا فـ..

انقلبت الموازين. أصبحت السماء كحلًا أسود وكأن هناك من أخفاها بعباءته السوداء، فوجئ بالسماء تصرخ بشدة بعلو صوتها وشدة ضوئها بين بروقٍ ورعودٍ وكثيرٍ من الصواعق الكاسرة. تشققت الأرض وابتلعت كل

ما كان عليها من زهور وأشجار وأشكال الجمال كافة التي كانت تتحلى بها، صارت جرداء سوداء ميتة بطعنات الصواعقِ، لا زرعَ فيها ولا ماء.

ذُهل سعد مما هو فيه، في ثوانٍ قليلة كل شيء قد تغير، للأسوأ.

كانت عيناه تقطران خوفًا وبعض أكواب من الرعب والذهول.

تحجّر في مكانه بعدما غيَّر رأيه في القفز والمرح في تلك الجنة المؤقتة التي تحولت إلى جحيم.

وجّه سعد رأسه للأمام بعد أن كانت متسمرةً جهة الأعلى – تجاه السماء الغاضبة. وتفاجأ بالمنظر، القط، لم يعد ذلك القط الصغير الجميل، فقد تحوّل إلى أسدٍ ضخم، أسدٍ أسود ضخم.

عندما رأى ذلك الشيء أمامه سقط قلبه بين قدميه. اختل توازنه وسرت القشعريرة في جسده ليست كأي قشعريرة أبدًا، كانت قشعريرة الرعب التي هزت كيانه. زأر الأسد بصوته المخيف وتدلى بالقفز من على العرش الذي لم يظل على حاله، كان هو الآخر قد تغير كليًّا، أو بالأحرى، ظهر على حقيقته.

أصبح متخشبًا خاليًا من أي شكل من أشكال الجمال التي كان يصطحبها معه منذ قليل. اسودَّ لونه ونامت عليه الزهور نومةً أبدية، فذَبُلت للأبد.

كان في رأس ذلك العرش العظيم ثعبان مُحنط يتلوَّى على العرش يطوّقه كاملًا وقد كان رأسه تبرز من مقدمته، وتحته، هناك حرفٌ لُوّن بالدماء، حرفٌ بلغةٍ غريبة لا يعلم سعد معناه، لكنه ظنَّ أنها لغة من لغات الأرض.

في تلك اللحظة، كان سعد قابعًا في الأرض غير قادرٍ على الحراك وقد شعر بأنه سمع صوتًا ما! تتعالى الضحكات المبحوحة المخيفة داخل المكان بصوت عالٍ ومخيف.

شُلّ لسان سعد وقد تخشَّب مكانه، حرّك رأسه متوجهًا إلى مصدر الصوت الغريب وقد صُدم مما رَآه. امرأة، لم تكن امرأة في الحقيقة، كانت كائنًا غريبًا يشبه الملكة، ملكة قبيحة، شعرها خشن طويل يصل إلى تحت قدميها العفنة، وعلى رأسها كان التاج الذي يدلُّ على أنها ملكة حقًّا.

بوجهٍ شاحب وعينين صفراوين، كانت تلك المرأة في مرمى نظر سعد الذي تسمّر مكانه ولم يستطع الهرب أو حتى التفكير به.

خلال ثانية فقط..كانت العجوز أمامه بسرعة الضوء، لم يرَ سعد إلا بعضًا من شعاع اللون الأحمر متجهًا نحوه والرياح بغبارها كانت تعصف وراءه. كان سعد ذاهلًا ناظرًا تحت قدميها، لم يجرؤ على النظر في وجهها ولا حتى على تحريك قدميه من فوق الأرض، تخشّب، أخرجت يدها ببطء من الفستان البالي واتجهت بها إلى سعد. بأظفار قبيحة طويلة، مدّت العجوز

يدها نحو ذقن سعد فرفعت رأسه نحوها كي يراها وتراه، فالتقت الأعين المرتعبة بالأخرى الصفراء المتوحشة، تمتمت العجوز بكلمات غريبة خافتة وكأنها تتلو لعنةً ما، ومن ثم انفجرت بصوت عالٍ مبحوح في وجه سعد، قائلةً:

- أنت المختار!

في تلك اللحظة اعتمل البرق والرعد في السماء وتزعزعت ملامحها بفعل الصواعق المدوية، وما لبثت العجوز أن أخرجت صولجانًا غريبًا لم يرَ سعدٌ طلاسمه الأكثر غرابة، فأشارت به نحوه بسرعة واندفاع.

استغرق الأمر جزءًا من الثانية حين توقف الزمن. قُذف سعد بقوة للوراء وكأنه ضُرب بصاروخ نووي، ولعبت الرياح العاصفة وقتها دورًا عنيفًا محملةً بالغبار والأحجار، فقذفت سعد بسرعة شديدة وقوة أشدّ إلى اللانهاية من الجحيم.

***

انتفض سعد من فوق حجر أمه ودقات قلبه تكاد تُسمع كَلَحْن حزين سريع، تنفس بصعوبة وبشدة وقد اصفرَّ لونه فجأة، ذُهلت أمه وازمهرّت وشرعت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

- تاني يبني؟! لا إله إلا الله!

هَزَّ سعد رأسه بالإيجاب وهو يضع رأسه بين يديه يحتضنها متنفسًا بصعوبة بالغة وقد تغير لونه وشحب، يا للهول! لِمَ كل هذا؟!

قام متجهًا إلى الحمام بترنّح، وعندما وصل، خلع ملابسه العليا ووضع المنشفة حول رقبته وأخذ يغسل وجهه بالماء، تدفق الماء بين ملامح سعد كي يُعيد له نضارته، ولكن محاولاته باءت بالفشل.

بينما هو في عالم النظافة رأى في المرآة شيئًا غريبًا على جسده، بدا وكأنه رسم منحوت على جلده يشبه حرف الـ «K»، كان ذلك الحرف يتوسط عظام قفصه الصدري من الأعلى، ولكن الحرف لم يكن عاديًّا ألبتة، بل كان متشعبًا كشجرة توتٍ ضخمة.

تغير لون سعد وظهرت ملامح الذهول على وجهه وهو فاغر فاه.

فارتدى قميصه بسرعة وعلى عجل ثم جفف وجهه بالمنشفة وخرج من الحمام متوترًا ناظرًا إلى الأرض بفزعٍ وخوف ظاهرين على طلاسم وجهه، ثم توجه ببطء نحو غرفته الكامنة في آخر الشقة العتيقة.

رفض الطعام طوال اليوم من أمه وهو جالس على السرير غارقًا في تفكيره وخوفه، فلم يرَ نظرة الحزن والأسى على وجه أمه وهي تغلق الباب عليه في كل مرة.

هو الآن مستلقٍ على سريره ينظر إلى السقف مباعد بين شفتيه من شدة الذهول والخوف والذعر.

الآن.. ماذا يجري؟!

***

في اليوم نفسه، ولكن الساعة كانت تشير إلى الواحدة صباحًا.

كان حاتم جالسًا في غرفته الخاصة، ليست غرفة النوم بالتأكيد بل غرفة عمله الخاصة. بقميصه الأبيض الأنيق، كان حاتم يروي نفسه بالعتاد لأداء تلك المهمة، مسدس، كاتم للصوت، رشاش صغير وقنبلة يدوية صغيرة إن لَزِم الأمر، سلّح نفسه بكل ما هو لازم، أعد هندامه وارتدى بدلته السوداء الفاخرة.. ثم خرج للدنيا.

كان يقف تحت بنايته يقابل هواء القاهرة الليلي مبتسمًا بثقة، ذهب متجهًا إلى سيارته السوداء ثم أدخل حقيبة سوداء لامعة تحمل بعض المال الذي سيحتاجه لاحقًا، اتصل بصديق قديم وحادثه مدة قصيرة ودخل السيارة وجلس على كرسي السائق فأشعل سيجارًا فاخرًا وتجرعه ببطء وكل هذا وباب السيارة ما زال مفتوحًا.

لم ينتظر سوى خمس دقائق.. ظهر صديقه ببدلة سوداء هو الآخر ولكن على رأسه قبعة تدلُّ على أنه سيلعب دور السائق في تلك المهمة.

ردّ «الباطل» بثقة:

- أولًا سنغتال بعض الرجال ذوي المكانة والمنزلة في الدولة لنشعل الانقسام بينهم ونقسمهم إلى طوائف معادية، كلٌّ منهم يكره الآخر، وقد تصل نتيجة ذلك إلى قتل بعضهم البعض، وبهذا، نبدأ إشعال فتيل القنبلة.

- وكيف سنفعل ذلك؟!

قالها رئيس المجلس الذي يُدعى «الظلم» ببرودٍ، فرد عليه «الباطل» بثقة ووجهه تعلوه ابتسامة غامضة:

- إذا سمحت، اترك لي هذه المهمة.

لدى حاتم أكثر من خمس لوحاتٍ لأرقام السيارات، واحدة أساسية حقيقية والأربع الأخريات مزورة وغير مُسجَّلة عند جهاز المرور. بالأمس، غيّر حاتم لوحة أرقام السيارة واعتنى بكل شيء.

قابل حاتم صديقه ببسمة وردها له الأخير وصافحه ثم ركب في قُمرة السيارة الخلفية، وركب صديقه السائق في الأمام متحكماً بالمقود، أدار السائق السيارة فنطق حاتم وهو يبتسم:

- يلا بينا.

عشر دقائق قد استغرقها السائق للوصول للمكان المطلوب. على بوابة الڤيلا كان هناك رجال الأمن، اثنان منهم يقفان أمام البوابة وواحد يتحكم بفتح البوابة الضخمة وإغلاقها بإشارة من رجال الأمن بالخارج.

وصل حاتم بسيارته سريعًا إلى البوابة وأحكم إغلاق الزجاج الأسود الذي يفصل بين القمرة الخلفية والسائق.

***

توقف عند البوابة بالقرب من رجل من رجال الأمن، توجه ذلك الرجل نحو السيارة ليتعرف إلى الزائر، فتح السائق نافذة السيارة ونطق بثقة:

- اللوا فتحي المحمدي.. افتح البوابة.

رجل الأمن بصوت غليظ:

- وفين هو؟!

تحدث حاتم إلى صديقه السائق باسم مستعار حيث قال:

- فيه إيه يا فتحي؟!

رد السائق:

- الجاردز عايز يشوف حضرتك يا فندم.

صرخ حاتم بعنف وعصبية مصطنعة مع تغليظ نبرة صوته:

- إنت يا حيوان افتح البوابة! أنا وقتي من دهب، ولا تحب أقول للباشا عنك؟!

تلعثم رجل الأمن وهو يقول مطأطئًا رأسه للأمام:

- أنا.. أنا آسف يا باشا لا مؤاخذة، أصل أنا لِسَّه جديد هنا والله سعادتك، آسف يا سيادة اللواء.

قالها بأسفٍ وعتابٍ لنفسه، ثم أضاف باضطراب وتعجُّل وهو يلوح لزميله:

- وصّل الباشا لـِجوّا.

رد السائق بحرفية وصرامة:

- لا خليهولك، أنا عارف الطريق.

ضرب السائق - صديق حاتم - نظرة احتقار وغضب على ما فعله رجل الأمن، ولكن كل هذا في الحقيقة لم يكن سوى تمثيل محض.

أشار رجل الأمن لصديقه بسرعة أن افتح البوابة، ففُتحت البوابة على مصراعيها ودخل حاتم ليسلم الهدية، هديته المفضلة.

***

تحرَّك بسيارته داخل الڤيلا إلى أن وصل إلى المبنى الضخم الذي كان أبيضَ اللون مغطى بالقرميد على الطراز الأميريكي، وله بوابة عظيمة، ومن الظاهر أنها منحوتة خشبية ومستوردة على شاكلة كل شيء هناك.

ترجّل حاتم من السيارة وصعد السُّلم القصير سريعًا، ثم توجَّه نحو جهاز «الإنتركم » الذي يحمل كاميرا وجهازَ إرسالٍ صغيرًا، فأخرج من جيب بدلته شريط أدوات يمتلئ بالمفكات وزرادية صغيرة حادة وشريطًا لاصقًا أسود، قطع قطعة من اللاصق الأسود ثم ألصقها على الكاميرا لتحجب الحدث.

شرع في حلِّ الجهاز وخلع القطعة البلاستيكية الخارجية، ومن ثم توجَّه متعجلًا تجاه سلكٍ أخضر تحمله أحشاء هذا الجهاز، ثم قطعه.

جيدٌ أنه لا وجود لكاميرات مراقبة سوى على السور من الخارج، قالها حاتم في نفسه، ووقتها انطفأت شاشة الجهاز، فابتسم حاتم لذلك، ثم اقترب من الباب الضخم ودفعه ببطء، فإذا به يتحرك.

صالةٌ تصلح للعب كرة القدم لأحد عشر لاعبًا أو معسكرًا لتدريب كتيبة جيش صغيرة ومُزيَّنة بالتحف الأثرية واللوحات الفنية العالمية المعلقة على الحائط، هذا غير الأثاث الفخم العتيق الذي يحيط بالمكان كله.

لم يكن هناك أحدٌ في المكان كما كان متوقعًا في هذا الوقت، فتوجه حاتم إلى مكتب الهدف وهو المكان المتوقع أن يكون فيه هذا الشخص في هذا الوقت، لقد درس الأمر جيدًا.

لم يطرق على الباب، ضغط على مكبس للداخل ففُتح الباب وفُوجئ حاتم بمنظر الهدف جالسًا على كرسي مكتبه وعلى المكتب نفسه فنانة مشهورة يعرفها الجميع بملابس خليعة تجلس أمامه، نطق حاتم سريعًا:

- أوووه.. آسف جدًّا يا فندم، شكلي جيت في وقت مش مناسب!

رد الهدف بعصبية:

- إنت إيه اللي دخلك يا حمار من غير ما تخبط؟! اطلع بره!

هَزَّ حاتم رأسه بالإيجاب وهو يغلق الباب، وكانت بسمة المكر الخبيثة مرسومةً على وجهه حينها.

تحرَّك في المكان الفسيح بقدمين بطيئتين وأخذ يدور بعينيه في أرجاء المكان ليجد بارًا، هذا الرجل السمين يملك بارًا في هذا المنزل الضخم! قالها في نفسه ثم جلس على كرسي مرتفع وأخذ يبحث عن نوعية جيدة من الشراب، فلاحظ زجاجةً كُتب عليها «١٨٣٤م»، التقطها، فظهرت عليه علامات البهجة، زجاجةٌ معتقةٌ من عام ١٨٣٤، يا لها من ليلة رائعة!

التقط كأسًا وشرع يسكب الشراب في الكأس التي بدت وكأنها من الفضة الخالصة. أمسك بالكأس وتجرعها على مرةٍ واحدة، ثم قال في نفسه: لقد حان الوقت.

قام من فوق الكرسي الطويل برشاقة وتوجَّه إلى مكتب الهدف المطلوب تصفيته، واطمأنَّ على حاجياته في أثناء سيره، طرق الباب فسمح له الرجل بالدخول بعد أن زفر بضيق.

- آسف يا فندم.. في مكالمة لحضرتها على التليفون.

نظر له الهدف السمين نظرة غضب، ولكنها تبددت حين نظرت المرأة للرجل الجالس على الكرسي بنظرة أنثوية كطفل يطلب الخروج مع أصدقائه الجدد، ثم قالت بميوعة:

- Please ممكن أشوف المكالمة وارجعلك يا روحي؟

عاجلها سريعًا دون تفكير:

- طبعًا يا روح روحي، اتفضلِي.

قامت من فوق المكتب ففتح حاتم لها الباب كي تخرج، وعندما خرجت، أحكم حاتم إغلاق الباب، وسار خلفها ببطء، وعندما وصلت إلى الهاتف وضعت السماعة على أذنها ثم أخذت تتحدث، ولكنها لم تجد أي صوت أو أي اتصال على الهاتف، وعندما همّت بأن تلتفت كي تسأل حاتم عن السبب، ضربها حاتم على مؤخرة رأسها بقبضة مسدسه الأسود السميك لتقع على الأرض مغشيًّا عليها .. دون أن تراه.

***

توجَّه حاتم نحو المكتب مبتسمًا ثم دخل دون استئذان وأغلق الباب سريعًا بإحكام، وهنا نَظَرَ نظرة ظفر نحو الهدف، صُدم الهدف لبرهة وبدا مستغربًا. سأريك مَن الحمار الآن؟ قالها حاتم في نفسه وهو يُخرج مسدسه الكاتم للصوت سريعًا ثم صوبه نحو رأسه، فنظر الهدف إليه حينها، وتجمّد!

في ذلك الحين شُلّ لسان الهدف ولم يقدر على الحراك أو فعل أي شَيْءٍ آخر ليطلق حاتم الرصاصة سريعًا لتستقر بين عيني الهدف في صمتٍ تامٍّ، وانتهى الأمرُ، ببساطة.

ابتسم حاتم ابتسامة خبث وقال في نفسه: الآن، مَن الحمار برأيك؟!

أخرج حاتم كاتم الصوت من مكانه في المسدس، ومن ثم ارتدى قفازًا طبيًّا ومسح بمنديله جميع البصمات من فوق السلاح، ثم دسَّ المسدس بين يدي الهدف، وأخذ يضغط على أصابعه كي يأخذ السلاح بصمته كاملةً، ثم سحبه من بين يديه ورماه أرضًا بالقرب منه، وها هو الآن حاتم يخرج ويُغلق الباب وراءه.. ثم ينطلق.

وفي أقل من دقيقة، كان حاتم يجلس في المقصورة الخلفية للسيارة ويقول بابتسامة لصديقه:

- يلا يا فتحي على البيت عشان جُعت.

ضحك ضحكة قصيرة ثم أضاف:

- قال فتحي قال!

ضحك الاثنان لثوانٍ ومن ثم صمتا درءًا للشُّبهات.

وخلال دقيقة أخرى، كان الاثنان خارج الڤيلا يستمعان إلى الموسيقى عبر محطة الراديو، كان يومًا سهلًا.

***

وصل حاتم لمنزله وشَكَرَ صديقه الذي سار على قدميه إلى بيته وطلب منه ألا يخرج من منزله مدة شهر كامل، وأعطاه الحقيبة السوداء الصغيرة مملوءةً بالمال كهدية متواضعة لما فعله لأجله.

دخل چراجه الخاص وقام بتغيير لوحة أرقام السيارة المزيفة وإعادة الحقيقية مكانها، ثم صعد إلى الدور الأول الذي تكمن فيه شقته الأثرية، أثاث إيطالي ولوحات فرنسية وتصميم أمريكي بحت، مزيجٌ من ثلاث دول قد صُبَّ في هذه الشقة الرائعة.

أدار حاتم مقبض باب شقته ودخل، اتَّجه نحو غرفته الضخمة، وضع الحقيبة على الكومود الخاص به، ومن ثم خلع ملابسه وأخذ منشفته وطوّقها حول رقبته واتَّجه للحمام ليستمتع بحمامٍ ساخنٍ فيزيح شقاءَ يومه في لحظاتٍ من تدفُّق الماء عليه، لم يتزوج حاتم إلى الآن، ولن.

هو يقول لنفسه لقد وُلدت حرًّا وسأظل كذلك. ومن تزوج ليس بحرّ بالتأكيد، أين الحرية في ذلك؟

خرج من الحمام والمنشفة تلتفُّ حول نصفه السفلي ثم اتجه لغرفته، وارتدى قميص نومه ومن ثم اتجه نحو المطبخ.

فتح الثلاجة وأخرج منها بيتزا نصف مَطهوَّة ليضعها في الميكروويف ثم اتجه ليحضر حبات الذرة من فوق الرفّ وشرع في عمل الفشار، استغرق منه

الوقت خمس دقائق كي يُنهي حاجياته، أخذ الفشار والبيتزا وسحب بيده باب الثلاجة ليلتقط زجاجة ال«ڤودكا» المفضلة لديه، ثم اتجه نحو التلفاز العريض ذي الاثنتين والخمسين بوصة، جلس على الأريكة متربعًا وأخذ ينهال على الطعام ببطء، بعضًا من هذه وشربة من تلك، وهنا ابتسم أخيرًا وهو يمسك بزجاجة الڤودكا ويقول في نفسه:

- يا لها من بيتزا!

الصورة الثالثة

في صباح اليوم التالي كان «حاتم» قد استيقظ من النوم وأعدّ فنجانًا من القهوة اللذيذة التي يحبها.

جاءته الجريدة اليومية من عم «طُلبة»، بواب البناية التي يقطن بها، فأخذها منه شاكرًا ثم أغلق الباب وقد ابتسم ابتسامة تليق بذلك الرجل المكافح.

دَخَلَ حاتم وأغلقَ الباب، ومن ثم عاد إلى مجلسه ليشعل التلفاز غير آبهٍ به؛ لأنه أمسك بالجريدة يقرأ مابها ليجد صورة ضحية الأمس قد غزت الواجهة، ابتسم ابتسامة مكرٍ وظفر. في تلك اللحظة جاءته مكالمة هاتفية فأمسك بالهاتف الموضوع أمامه على المنضدة القصيرة.

كان الهاتف في راحته عندما رأى كلمة «Unknown » .. كلمة تُثير الريبة حقًّا.. رد على المتصل بعد مرور ثوانٍ قليلة، فجاءه الصوت:

- عمل professional حاتم بيه.

لم يرد حاتم واكتفى بالصمت والتبسم، فأضاف الرجل المجهول بثقة:

- في هدية بسيطة قدام باب الشقة.

صمت لثانية ثم أكمل:

- زي ما اتفقنا.. شكرًا جدًّا حاتم بيه.

رد حاتم وهو يبتسم لهذا الأمر المفرح:

- العفو يا...حضرتك قولتيلي اسم سعادتك إيه؟!

نطق الرجل باقتضاب:

- مش مهم تعرف يا حاتم، خليني مجهول أحسن.. ليا وليك.

- اللي تشوفه يا مجهول بيه.

ضحك مقهقهًا ضحكات متقطعة.. كم بدا شريرًا ذلك العجوز.. ثم نطق:

- في خدمة تانية..

- وهي؟

- في لعبة كمان كويسة، وعايزك تشترك فيها.. وتفوز.

رد حاتم بصلابة وقد فهم مراده:

- تمام يا فندم.

أغلق الهاتف وخرج ليأتي بحقيبته.

فتح الباب ليرى الحقيبة فاقتلعها من الأرض وأغلق الباب بهدوء بعد أن ألقى نظرةً في الجوار، جلس على الأريكة مبتسماً بغرور. الغنيمة، ها هي أمامي الآن في حقيبة معدنية أنيقة، اطمأنَّ عندما رأى الأوراق من فئة المئتي جنيه أمام عينيه، لقد أخذ إجازة طويلة وقد عاد بقوةٍ حقًّا.

قام وأخذ الحقيبة وأفرغها في خزانته الخاصة الموجودة تحت أرضية غرفته، حيث كان هناك جزءٌ من أرضية المنزل قابلٌ للسحب، ثم أغلقها وعاد إلى الأريكة ليكمل قهوته اللذيذة.

***

في الظلام الموحش بين شوارع فيصل وحاراتها العتيقة كان سعد ما زال نائماً، أو كان ميتًا في الحقيقة، ميتًا في موتته الصغرى.

في عالم آخر من عوالم الدنيا الغريبة، كان سعد واقفًا على أرضٍ سوداء متشققة، وفوقه سماءٌ تصرخ بترنيماتِ الرعب بعلو صوتها.

الأرض تتكسر، تتصدّع، تتشقق وتبتلع كل أشكال الحياة التي فوقها. مشهدٌ قديمٌ يُعاد مرةً أخرى أمام عيني سعد الخائفتين المذعورتين، السماء تصرخ برعدها لتنادي بالموت لكل من يسمعها، وما زال سعد متحجرًا أصم. شرع

الطريق يتمدد أمام عيني سعد إلى أن ظهرت تلك العجوز من العدم.

شعرها القبيح يتدلى على الأرض لتجرّه جرًّا.. عيناها تشعان شعاعًا أصفر وترتدي قطعة من القماش تُشبه الفستان البالي.

تُعشِّش العناكب داخل الفندق الذي قد بُني على جسدها الشاحب.. وممسكةً عصاها المزركشة بالضباب المنحوتة بالدماء لتشكل كلمات بلغات عدة وغريبة تمتد بطولها، لاتينية ربما أو هيروغليفية.. كانت تلك اللغات بمنزلة تعاويذ أبدية طُمست بتلك العصا الغريبة.

تلك العجوز ذات الوجه المتشقق كانت تجلس على ذلك العرش الكبير الذي يشبه حِجر الشيطان. هي تلك المرأة المخيفة التي رآها سابقًا. هي.. ولكنها زادت قُبحًا.

ضحكت ضحكات متقطعة وعالية لتصرخ السماء بالرعود والصواعق. يا لحظك يا صديقي! أنت الآن داخل مكان لا تريد دخوله أبدًا.

- يا هذا؟!

نادته العجوز الشمطاء بصوتٍ مبحوح، كان سعد في ذلك الوقت أشبه بالصخرة، عيناه مثبتتان إلى تلك العجوز وأطرافه سرت القشعريرة كالزلزال داخلها.. فاغرًا فاه لا يصدق ما يراه ويسمعه.

أين أنا يا ربي؟!

تحرك سعد نحو العجوز دون إرادة وكأن هناك مغناطيسًا ضخمًا بحجم كوكب زحل يجذبه إليها.

- لا تخف أنت في مكانٍ آمن.

استغرق سعد عدة دقائق كي يرد على تلك العجوز الشمطاء الشاحب لونها تخيف الناظرين:

- أين أنا؟!

قالها بتوتر وتقطُّع، فردت عليه بغموض:

- أنت في الجنة.

أين سمع تلك الجملة من قبل؟! رد سعد مترددًا:

- لا أظنُّ أن الجنة هكذا.

- ربما النار جنة بالنسبة لك.

ردَّ عليها بثبات وكأنه اعتاد المكان:

- دعكِ من هذا.. لِمَ أتحدّثُ الفصحى هكذا؟!

- الفصحى هي لغة المختارين!

- مختارين؟!

- نعم، المختارين، أنت مختار، لك مميزات وفضائل جمة عن سائر البشر الحمقى.

قال بتردد:

- ماذا تعنين؟!

قالت وهي تسير بيدها على جسد القط الأسود الضخم:

- أعني، معرفة الشيء قبل حدوثه، مثلًا.

- لكن، كيف؟ لا أحد يقدر على ذلك!

- ستقدر، لا تقلق أيها الشاب.

- كيف لا أقلق وأنا في هذا المكان المخيف؟!

قالها بثقة بعد أن اعتاد المكان والحديث، فردت:

- هذا عالمك الآخر، إن ما تعيشه في دنياك ما هو إلا عذاب وكابوس طويل الأمد، أنت هنا في الخلود، بينما مسجونٌ أنت داخل دنياك، مُكبَّل اللسان والأيدي والأرجل، لا يمكنك فعل أي شيء سوى ذم ما أنت فيه وفي داخلك فقط أيضًا، وزيادةً على ذلك أنت مصري أيها الشاب، هؤلاء هم المصريون، «طيبون».

- ما دخل أني مصري بكل هذا الهراء وما أنا فيه الآن؟!

ضحكت ضحكتها الشريرة ثم ابتسمت ابتسامة يهرب منها الضوء مظهرةً أسنانها الصفراء المتكسرة لتزيد قبحًا إلى قبحها، ثم ردت:

- لا دخل أبدًا.

- هل متُّ إذًا؟!

- لا، لا لم تمت بالتأكيد أنت فقط في نزهة. أُنبِّهُك! ستكون هناك نزهة يوميًّا كلما تنام، أليس هذا أمرًا رائعًا؟!

ارتعب سعد وقد هزت كلماتها غياهب عقله التائه، فأكملت:

- لا تقلق سأكون صديقتك هنا، ومن الممكن أن أكون حبيبتك في يومٍ من الأيام أيضًا!

ارتد الخوف والرعب في وجه سعد من قولها، فضحكت ضحكة الأشرار مرةً أخرى تاركةً سعد يعيش مشاهد الرعب والفزع.

- لستُ قبيحةً لهذه الدرجة! أمزحُ معك، لن أكون حبيبتك بالتأكيد، فقط سأكون مساعدتك، فأنت المختار.

رد سعد بعدما اطمأنَّ من نفي ما قالته:

- فيمَ ستساعدينني؟

- في كل شيء تقريبًا، ولكن في هذا الوقت الراهن سأنبئك ببعض الغيبيات، أقصد ما سيحدث في عالمك الآخر، عالمك الأسود الفاسد.

- وكيف ذلك؟

- حسنًا، ما رأيك أن أخبرك بأن هناك شخصية مهمة بالنسبة لكم قد قُتلت بالأمس.. في عالمك؟!

- من هو؟ وما الفائدة من ذلك؟!

- بالتأكيد هناك فائدة، هناك فائدة لكل شيء، فأنت المختار! سكتت قليلًا لتحرك لسانها إليه.

- اقترب مني.

ما إن انتهت من قولها حتى وجد سعد نفسه كمعدنٍ ومغناطيس ينجذب إليها حتى وصل تحت قدميها تمامًا، ثم ذهبت بفمها القبيح إلى أذنه الصغيرة وسعد يترجرج رعبًا، وذكرت اسمًا.. ارتعب سعد من الاسم.

- ما أدراني أنكِ لا تكذبين؟

- سترى أيها المختار.

استغرق الأمر جزءًا من الثانية حين أشاحت العجوز السوداء بصولجانها في وجه سعد، عرِف سعد ما سيحدث الآن، فقد جربه سابقًا، ارتد الهواء ممزوجًا بالأتربة والحصى الكثيف في وجهه لتقذف به بعيدًا.

إلى مكان غير معلوم.. وقتها كانت السماء تغزوها الصواعق والبروق مخلوطةً ببعض الرعود.

كانت مجرد ضربة على الرأس بالنسبة لسعد.

***

في اليوم التالي صباحًا ذهب الطبيب تجاه غرفة حسن ودخلها ليجده جالسًا على مكتبه وينظر للسقف، ابتسم الطبيب وحيّا حسن ومن ثم اقترب منه وفي يده ظرف كبير.

جلس الطبيب على المكتب ليواجه حسن بابتسام، فنظر له حسن بلا مبالة ومن ثم أعاد نظره للسقف، فضحك الطبيب ضحكة خافتة ثم فض الظرف ليخرج ما يحوي، وهنا رمى الطبيب عشرَ صورٍ مختلفة أمام حسن، ثم رتبها أفقيًّا بانتظام، جذبت الصور انتباه صديقنا، فوجّه نظره عليها وتفحَّص جميع الصور بتركيز، وعندما رفع رأسه ليواجه الطبيب، نطق الطبيب عمر بهدوء وهو يشير إلى الصور:

– هنا تكمن مهمتك الجديدة، أنا أعلم جيدًا أنك تريد الخروج من هذا الأمر، وأعلم أيضًا أنك تريد استعادة حياتك المبهجة كما يريد الجميع، لهذا عليك أن تفعل شيئًا من أجلك ومن أجل «جميلة»، عليك أن تكون بصحة جيدة لتكمل حياتك، هل تظنُّ أنها ترضى عما تقوم به؟ بالتأكيد لا، هي تريد لك أن تعيش بهناءٍ وأن تستمر الحياة.

صمت قليلًا ثم أكمل:

– هل ستقوم بذلك يا حسن؟!

ربما أثرت فيه بعض هذه الكلمات، لأن حسن أومأ للطبيب بالإيجاب، فابتسم قلب الطبيب وشرع في الحديث:

- أريدك أن تكتب عن هذه الصور، اكتب أي شيء تريد، المهم أن تنثر حروفك عن الصور، كل صورة لها قصة سعيدة، وعندما تنتهي من هذا الأمر، ستكون هناك مفاجأة تسرُّك في النهاية جدًّا.

نظر حسن للطبيب بتوجس وأطال النظر، ثم أومأ له بالموافقة في النهاية على غير المتوقع أبدًا.

كلٌّ ما سبق هراء، وكل ما سيأتي هراءٌ آخر

الصورة الرابعة

النسيمُ النسيم، الهدوءُ الهدوء، بين صفحات السماء الهادئة كانت العصافير تزقزق بأصواتها الشجية التي تُريح النفس فوق تلك البناية التي يعيش بها ذلك الرجل الذي يُدعى «حاتم».

في الخفاء، كان لا يزال التحقيق جاريًا في قضية مقتل ذلك السياسي المُحنّك، وقد استُدعيَ أمهرُ المحققين والأطباء الشرعيين كي يصلوا إلى مرتكب تلك الجريمة، التي لا يعرفون أنها خير لهم، ليس لهم بالتأكيد لكن للشعب المتألم، فقد كان هذا الشخص المرموق إعلاميًّا وشعبيًّا مجرد مجرم حقير يتخفّى تحت قناع الطيبة وحب الناس وحب الخير لهم، كما كثير، ولكنه لم يكن سوى آلة تسحب الدماء من أوردة الشعب الضعيف دون رجعةٍ.

يستحق ذلك المعتوه تلك الموتة الشنيعة، ولو أن الكتير تمنى أن يُعدم بالخازوق.. لكن كيف! فالإعلام هو سيد الموقف أولًا وآخرًا، فهو من يجعل الشخصية عظيمة وشريفة إلى حد السماء، وهو أيضًا من يجعلها تُداس بالأحذية البالية أسفل الأراضين السبع، وهنا الإعلام يترأّس الحكم على البشر.

ليس الجميع جاهلًا لهذا بالطبع، فهناك من يعرف ما يخبئه هؤلاء وراء الستار، لكنهم قلة، باستطاعة الكثيرون أن يعرفوا الحقيقة، ركّز على صوت الرجل الكامن وراء الستار، ضع أذنًا ترقب هزّاتِ صوته المضطرب وتخلخلاتِه حين يُجبر أو يُخيَّر، بالإضافة إلى ذلك، وهو الأساس، يمكنك النظر لعينيه لتعرف ماذا يُخبِّئ حقًّا؛ لأن العين لا تكذب.

النفاق والمال، هما من يجعلان كل شَيْءٍ متوفرًا وسهلًا، إذا كنت تريد أنت تلتحق بكلية الطب ومعك المال والجاه، ستلتحق ولو كنت في القسم الأدبي حتى.

ولأنك حصلت على المال والنفاق، ستنال كل شيء على وجه البسيطة، لكنك لن تحصل على الحق أبدًا، فقط ستعيش على أرغفة الباطل طوال حياتك لتموت في النهاية باطلًا على باطل وسيُخلّد التاريخُ الباطلُ تاريخَك؛ لأن الباطل يحبُّ أخاه.

كان حاتم يستمتع بانسجامه في الاستحمام وقتها حينما جاءته رسالة لم تُحدد مصدرها بعد..خرج من الحمام وارتدى ملابسه المنزلية الحريرية والمنشفة تدور حول رأسه لتجففها.

كان هاتفه يُضيء منبهًا إياه بوجود رسالة يجب أن تُقرأ.

أمسك بالهاتف وفضّ الرسالة، وكان محتواها:

مستنيك في كازينو «الليل» الساعة (١) النهارده.. تعالَ ضروري.

العجوز الأحمق.. هل يراني دمية يتحكم بها وقتما شاء أم ماذا؟!

قالها في قرارة نفسه، ثم..قرر الذهاب في النهاية ليرى ما الضروري هذا.

***

استيقظ «سعد» مُخلِّفًا بركةً من العرق نتيجة كابوسه الذي راوده البارحة.. لا يدري أهو شيء سيّئ أم جيد بالنسبة له.

جلس على السرير مضرجًا بالخطوط الحمراء ناتجة نومٍ سيئ.. ألقى رأسه بين يديه وشرع يفكر... المختار! ماذا تعني تلك العجوز بهذا؟! أهو جيد لي؟! أم أن هناك مصائب في الطريق؟ في الحقيقة.. المصائب على السلم وليست الطريق.

هُرع سعد إلى والدته التي كانت تعدُّ طعام الفطور.

- ماما ممكن...

لم يستطع إكمال جملته.. أحسّ بأن حبل أفكار قد انقطع عنه وقتها، لا يدري ماذا يقول وماذا يحكي.

- إيه يا بني كفى الله الشر .. في حاجة؟!

قالتها أمه بخوف، فلم يستطع الرد، واكتفى بالصمت والنظر في الأرض خائفًا كحمل وديع، ثم سقط في أحضان أمه وارتمى بين أضلعها.

- أنا تعبان يا ماما تعبان.

لطالما كان المُدلَّل في المنزل حتى بعدما أصبح رجلًا يُعتمد عليه، فعاجلته والدته:

- تعالَ يا قلب أمك.. إن شاء الله أنا!

جلسا على الكرسي وبدأت الأم بقراءة الرقية الشرعية عليه وهي تهزُّ رأسها في حزنٍ وأسى على حال ابنها الوحيد.. وقتها كان سعد في عالمٍ آخر. لم يقدر على إخفاء ما حدث معه وقرر أن يخبر أمه بما حدث.

ابتعد المسكين عن أحضان أمه الدافئة، ثم..

- ماما أنا بقالي كام يوم بحلم بحاجات وحشة زي ما قلتلك.. بس.. بس مش أحلام عادية.. أنا لِسَّه حالم بواحدة و..

قاطعته:

- لا لا يابني استعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. اتفُل عن يسارك ثلاثًا زي ما قال الرسول الكريم!

نظر نظرة يأس نحو أمه، وقال:

- عندك حق يا أمي.

سكت قليلًا ليضيف:

– بس يا أمي قالت لي شوية كلام غريب كده، المختار مش عارف إيه! وقالت لي إن في حد من الناس المهمة بتوع السياسة دول اتقتل امبارح.. دي بتقول حجات لِسَّه محصلتش أو..أو حصلت بس قليل اللي يعرفها، أو حصلت.. بس محدش يعرف عنها أي حاجة!

نظرت له أمه بعدم فهم، فأكمل:

– يا ستي بتقولي حاجات مستقبلية يعني لِسَّه محصلتش.. بس أنا مش متأكد من الكلام ده!

ردت الأم باضطراب:

– و ...ويا بني طيب، طيب هتعمل إيه؟!

– مش عارف يا أمي، مش عارف.

سكت قليلًا، ثم أكمل:

– هو مش حماده جاب جرنال النهارده؟!

– أه جابه.. هناك على الشيفونيرة.

قفز سعد من مكانه سريعًا ليأتي بالجريدة ليتيقن من صحة كلام تلك العجوز الشمطاء.. فتح أول صفحة في الجريدة لتنفجر الصدمة وتملأ وجهه المندهش، «سليمان منصور»!

عضو مجلس الشعب، ووزير بيئة سابق، وصاحب أكبر شركات التوريد والتصدير في مصر، وله ثلث مصانع مصر من الحديد والإسمنت وله الكثير والكثير، هذا ما ظهر، والله أعلم بما بطن.

صدقَت تلك العجوز إذًا.. هل يفرح أم يحزن الآن؟!

جاءت أمه عن يساره تنظر إليه مستغربةً مظهر المفاجأة على وجهه، لم تنتظر ثوانٍ قليلة حتى برزت علامات الريبة والخوف أيضًا، التفّتَ حوله إلى أن ظهرت أمامه والتقت الأعين، فهزت رأسها مستفسرةً فبادلها بهزه هو الآخر بأن نعم.. هو!

لكن الجريدة قالت شيئًا غريبًا.. سليمان منصور لم يُقتل.. قالوا شيئًا أكثر غرابةً، رأى سعد العنوان الرئيسي بالأحمر وفيه:

وفاة سليمان منصور عضو مجلس الشعب وصاحب شركات أيزوماستر للسيراميك ومصانع حديد المنصور عن عمر يناهز الستين عامًا.. ليرحم الله فقيدنا.

كم علامة تعجب سيخطّها سعد في رأسه الآن؟!!

هو من همست به تلك العجوز في حلمه الغريب، إنها تقول الحقيقة إذًا.. ولكن كيف؟! ولماذا... ولماذا يكذبون حول الأمر؟!

نُسجت شباك العناكب داخل جمجمته المتفجرة من الريب والخوف.

لا يدري ماذا يفعل ولمن يقول هذا! أهو مختارٌ حقًّا ليعرف مثل تلك الأمور، أم ماذا يُسمى ذلك، إن المعرفة الكثيرة قد تُودي غالبًا..

إلى..

الهلاك.

الصورة الخامسة

في نفس الوقت، ولكن في مكانٍ آخر.

كان حاتم يتجرّع دوائه (lkapress 5)، مريض بالضغط هو، أخذ دواءه وشرع في فطوره المُعدّ مسبقًا، ثم وبينما هو يتناول طعام إفطاره جاءته مكالمة هاتفية، ولكن ظهر اسم المتصل، أي لم يكن (Unknown).. فاطمأنَّ لذلك.

كانت تلك «تالا» هي المتصل.. صديقته الوحيدة البعيدة.

جاءه صوتها:

– أهلًا.. عامل إيه يا حاتم؟

– الحمد لله، إزيك يا تالا؟

قالها بنبرة أسف وعتاب لما فعله آخر مرة معها ولم يتصل حتى، مع أنه المخطئ، فهي من اتصلت به لأنها افتقدته.

– الحمد لله كويسة.. وحشتني يا توتو.

- وأنتِ كمان.. إيه فينك كده مش موجودة على الخريطة؟

- هبقى موجودة لو بحثت.

شعر بالتأنيب لما فعله وأحسّ به من نبرتها، فرد:

- أنا آسف.. على المرة اللي فاتت..كان ورايا حاجة مهمة جدًّا والله.

ومع أنه لم يتأسف قط لأحد طوال حياته فقد فعلها، وكانت تالا أول البشر.

عاجلته تالا وكأن شيئًا لم يكن:

- ولا يهمك، مفيش حاجة.

- طيب، مفيش مفيش، عايزة حاجة؟

- لا لا استنى، انت فاضي النهارده؟!

أجابها ببرود أعصاب:

- مش عارف والله..

- لا من فضلك، بابي عامل Party في الڤيلا ونفسي تحضر، من فضلك يا حاتم من فضلك!

رد حاتم بحدة:

- وإيه المناسبة إن شاء الله؟!

- مفيش، هو بس بابا بيحب يوطد علاقاته مع المستثمرين ورجال الأعمال فعمل الحفلة دي عشان يفيد ويستفيد وكمان يعرَف ويُعرف.

- باباكي ده عبقري.

- أكيد يعني، ده بابايا!

قالتها بغرور مصطنع، فرد حاتم:

- أيوة أيوة.

- متنساش الحفلة النهاردة الساعة (١)!

تذكر حاتم موعده السابق مع العجوز وهو في نفس توقيت حفلة والد تالا، فتردد وهو يقول ببرود متقن:

- آه آه، حاضر.

أنهى مكالمته الهاتفية مع تالا ورمى بالهاتف على الأريكة.

وما إن استقر على الأريكة حتى وصلته رسالة عاجلة، رسالة بلغة أجنبية لم يحدد مصدرها بعد.

عَرف أنها الروسية للوهلة الأولى ففتح برنامج الـ (Translator -المترجم)، ثم دفن الكلمات القليلة في الصندوق كي تُترجم للعربية ويعلم حاتم فحواها، وكانت الترجمة:

[صورتك معي أيها القناص المتمرس].

انتفض حاتم من مكانه وشرد بذهنه وكاد يكسر كل شيء أمام عينيه.

يا للهول!

من رآني والتقط لي صورة؟ لم أرَ أحدًا في المكان قط!

لو ذهب ذلك الكائن إلى أي مكان أو أي مسؤول بتلك الصورة فستحدث ضجة كبيرة، وبالتأكيد لن يكون شيئًا جيدًا بالنسبة لحاتم.

قذف هاتفه على الأريكة بعنفٍ، ومن ثم رمى بنفسه جانبه وهو يضع رأسه بين كفيه العصبيتين.. لستُ أنا من يُفعل به هذا!

***

في تلك الأثناء كان سعد شاردًا بعقله وجسده بين أربعة جدران صامتة غُطّت بسقف بالٍ. انسلّ الهواء الطلق مِن النافذة المفتوحة كي يصطدم الهواء الصافي بوجهه الساكن الشاحب.

لم يحرك ساكنًا منذ أن استيقظ، كان يومًا عصيبًا عليه، يقصد كابوسًا عصيبًا عليه.. لا يدري ما هو .. فالمهم أنه كان عصيبًا وانتهى.

لاحظ سعد وجود أمه في الغرفة تنظفها وتُرتِّب ما بها، فتوجَّه إليها وقبّل رأسها ويدها. ثم خطر بباله أن يتصل بصديقه الوحيد «أنس» صديق عمره. كانوا معًا منذ المرحلة الثانوية، ولكن قد قطعت أحوال الدنيا حبال السؤال

فيما بينهما. فقط.. اتصال كل شهر وربما شهرين. تخرج الاثنان في كلية التجارة كلية «الشعب»، كما يقال، يعمل سعد بشركة محاسبة ليست بالكبيرة، أما أنس فيعمل في محل للعطور. نهاية مأساوية حقًّا لشخص قد درس ستة عشر عامًا لتحكم عليه الظروف إلى ما آل إليه.

عاد سعد إلى السرير وبحث عن هاتفه فوجده أسفل وسادته، فأخذ يبحث بين الأرقام كثيرًا، لكن في الحقيقة هو لم يكن يبحث، فقد كان يحتفظ بثلاثة أرقام فقط! مدير عمله، وصديقه أنس، ورقم قلبه القديم، كم أثّر فراقها في سعد، كم صدّعت طلاسم ملامحه الباسمة، قَد أصبح يائسًا الآن وسيظل كذلك للأبد.. فَقَد معنى الحياة الذي هو في الأصل كان مُرًّا لاذعًا لا يُطاق.

وقتها كان يتذكر بيتًا من الشعر لابن الفارض يعشقه عشقًا ويحفظه عن ظهر قلب، فردده هامسًا وهو ينظر للسقف:

قلْ للعذولِ أطلتَ لومي طـامعًا   إنَّ الملامَ عنِ الهوى مستوقفي.
دعْ عنكَ تعنيفي وذقْ طعمَ الهوى   فإذا عشقتَ فبعدَ ذلـكَ عنِّفِ.

ذاق طعم البيتين في حلقه، وإن كان مرًّا مُذكرًا بماضٍ لا يحب تفاصيله أبدًا، عندما مَرَّ باسمها مرة أخرى اقشعرَّ بدنُه وأغمض عينيه حين ظَلَّ قلبُه ينتفض.

ترك الهاتف على السرير، وقام ليرى نفسه في المرآة. شعرٌ طويل ولحيةٌ أطول، عينٌ حمراء من صعوبة النوم ومُرّه، ولونٌ أصفر صار جزءًا لا يتجزأ من وجهه.

هيهات الرجوع، وهيهات الأمل.

جلس على السرير مرةً أخرى ولكن وبدون تفكير طلب رقم صديقه «أنس»، رنة والأخرى وتبعتها الثالثة ولكن لا رد، الرابعة..

بدأ المحصل في تحصيل الثواني والدقائق، فوصله الصوت:

- السلام عليكم.. إزيك يا برو؟

رد سعد بتسرّع لعدم اعتياده ذلك، واستمر حديثهما لثوانٍ، ثم..

- مش مظبوط! لا إله إلا الله!

- يا حيوان، قصدي تعبان ومش عارف أنام!

بدأ سعد قولها ببسمةٍ وأنهاها بنبرة ألمٍ، فرد عليه أنس مجاملًا:

- ألف سلامه عليك يا صاحبي.

- الله يسلمك يا سيدي .. عايز اقعد معاك شويه؟

ردَّ أنس بفرحٍ:

- قول للزمان ارجع يا زمان، حبيب قلبي أنا تحت أمرك، قولي الزمان والمكان وهتلاقيني عندك فورًا.

اتفقَ سعد مع صديقه أنس، وقد شَعَر بملعقة أمانٍ سُكبت فوقه،و..

- سلام يا سيدي.

- سلام، س لام س س لام.

صرخ أنس بعصبية:

- خلاص بقا ما تقفل يا حبيبي!

هذه عادة المصريين «القدامى»، لا تدري ما العقدة في هذا، الوداع كما نعرف بكلمة واحدة أو اثنتين، لكن أن تودع شخصًا ما، وتكرر نفس الكلمة مرارًا وتكرارًا حتى يضيق المتصل بك ذرعًا ويغلق في وجهك، هذا هو الغريب حقًّا!

ضحك الاثنان في مرح مؤقت، ثم أنهيا المكالمة وودعا بعضهما البعض على أمل لقاء قريب.

أنهى سعد مكالمته ورأى شاشة هاتفه.. دُهش.. لقد تكلّم لدقيقتين كاملتين.. غريبة بالنسبة لسعد .. سعد المنعزل المنطوي. هذ الأحمق لا يُجيد استخدام وحدته أبدًا، لا تظنَّ أن انطواءك وبُعدك عن البشر قد يجعل منك رجلًا مكتئبًا حزينًا، قطعًا لا، هذا يجعلك رجلًا سعيدًا يملك الوقت الكافي ليمرح بعيدًا عن «الأوساخ».

لتفهم أيها الغبي.

طوى صفحات هاتفه وألقاه على السرير، ثم تبعه جلوسًا بالقرب منه، فزفر وهو يرمي رأسه إلى يديه لتلتقطاه، فأخذ يفرك في شعره الطويل ثم رفع رأسه عن يده، واستلقى على السرير، فظلّت عيناه تثقُبان سقف غرفته ليبدأ في الغوص داخل تفكيره المؤلم المُشتَّت.

الصورة السادسة

الساعةُ الواحدةُ إلا الثلث.

الليلُ الأدكنُ يغطّي شوارعَ القاهرة، وقد أُغرقت بناياتُها للأعناق.

على كورنيش النيل كان حاتم جالسًا في هدوءٍ على مؤخرة سيارته السوداء الجميلة، مستنشقًا الهواءَ الهادئ، هواءَ النيل، كان النيلُ يتنفّسُ عوادم السيارات وعوادم كُلِّ شيء وفي النهاية يزفرُ الهواء الطلق في وجوه المارّين والجالسين على الكراسي الملتفة حول شاطئ النيل.

ومن ضمن هؤلاء، كان «حاتم» ممسكًا سيجاره الفاخر واضعًا رجله اليمنى على اليسرى.. يفكر في حياته وأصدقائه..غير الموجودين أصلًا.

بينما هو غائبٌ في غياهب الهدوء، دقّت ساعته الروليكس تنبهه بأن الوقت أتمّ الواحدة بعد منتصف الليل، وما زال الهدوء والهواء النقي يتمشيان بين أرواح السكارى بالحياة.

قفز من فوق سيارته وأطفأ سيجارته بوضعها تحت حذائه ودخلها.

ارتمى داخل سيارته وأدار مُحرِّكَها ثم انطلق إلى المكان المعلوم.

عندما وصل شرعت عيناه تُراقبان زُوَّار المكان، كان ينظر إلى ساعته عندما رفع رأسه ليلاحظ سيارة «رولز رويس» سوداء تقف بالقرب من الكازينو.. ألقى نظرةً إلى ساعته وقال في قرارة نفسه: لقد حان الوقت.

فخرج من السيارة متوجهًا إلى بوابة الكازينو العريضة. دقيقة.. استغرق حاتم دقيقة أو أقل كي يغطس داخل صخب الصالة المكتظة بالبشر.. أقصد رجال الأعمال والنواب وكل من له وعليه والمجرمين الشرفاء إعلاميًّا وأصحاب النفوذ المُقنْطرة خزائنهم بالذهب والفضة.

تحركت قدماه إلى أن وصل الى البار المُزيَّن بالخمور.. جلس إلى الكرسي المرتفع وطلب شرابًا، جاءه الشراب، تجرَّع ما تجرعه، ثم دار بظهره ليواجه الصالة الفسيحة بمن فيها ويتمشّى بنظرِهِ يبحث بين الموجودين. لم يدرك أنه تحت مرمى نظر ذلك العجوز الشاب الذي كان متواريًا في بطانة الظلام حينها. وأخيرًا رَآه، أشار له العجوز، فقام من فوق الكرسي وتوجَّه بهدوء وثقة نحو الرجل المتخفي بين صفحات السواد تلك، عندما وصل إلى الطاولة.

- اتفضل حاتم بيه.

قالها ببرود، فرد حاتم شاكرًا:

- شكرًا.

جَذَبَ حاتم الكرسي وجلس عليه بوضعية الرجل الهمام في الوقت التمام.

- الهدية .. تمام؟

- تمام.

قالها ببسمةٍ، فباغتَه العجوز:

- في لعبة تانية.

حاتم، بغرور:

- تحت أمرك.

- ياريت تبقى بنفس الطريقة.. عاجبني جدًّا أسلوبك.

قابلها ببسمة ونظرة إعجاب، فرد حاتم مبتسمًا:

- أنا تحت أمرك يا فندم.

ردَّ عليه سريعًا:

- وكمان الهدية هتبقى اتنين مش واحد.

هَزَّ حاتم رأسه بالإيجاب مبتسمًا، فألقى الرجل ظرفًا أبيض سميكًا أمسك به حاتم وهَزَّ رأسه.

- الباشا بيبعتلك تحياته.

ابتسم حاتم ابتسامة غرور، ثم رَدَّ:

- يشرفني سعادتك.

قام حاتم من المجلس وانحنى تجاه العجوز مودعًا.. ثم ذهب في طريقه للخروج من المكان الصاخب.. حرك عنقه للخلف ليرى إن كان العجوز ما زال جالسًا، ولكن على ما يبدو فقد أكله الظلام.. لم يكن موجودًا. طار مع الرياح.. خرج حاتم من الكازينو الصاخب وكأنه كان داخل صندوق مُعلِّق ومظلم تحت الأرض، تتمشى فيه أشعه الضوء الخافتة مدججة بالأصوات الصاخبة.

لقد كان في القبر.

خرج حاتم من دوامة الضوضاء وكأنما خرج من النار.. في الحقيقة، هو خرج من النار حقًّا، فهو لم يكن في المسجد، لقد كان في كازينو!

وهنا استعاد حاتم الحياة مرة أخرى..الحياة بهدوئها الصاخب.

***

داخل كافيه «Star» المطل على شارع العريش بفيصل، والذي يملكه صديقهم الجديد القديم «مجدي».

«مجدي» شاب عشريني من نفس عمر صديقيه، ولكن بعقلية فذة عاملة، فقد كان منذ صِغَرِه يبيع الأشياء لأصدقائه في المدرسة ويتاجر بها، والآن هو

صاحب هذا الكافيه المتواضع، كان يُلازم سعد وأنس في سنوات الثانوية الثلاث.. شعر أسود طويل نسبيًّا ومموج.. بشرة بيضاء مائلة للصفرة.. عينان عسليتان وحاجبان دقيقان رُسِمَا بدقة.. لحية خفيفة تكوّنت برش بعض الشعيرات على أرضية وجهه.. متوسط الطول.. دائمًا ما كان يعيش الحياة بطولها وعرضها.. وها هو الآن.

كان سعد جالسًا على كرسيه غير منتبهٍ لما يجري ويدور داخل المكان فقد كان في عالم آخر.. كانت أفكاره متشابكة.. متناثرة.. فقد تشوَّهت معالم تفكيره المليء بالغموض والأسئلة.

ماذا أقول لأنس؟ أأقول له كل شيء أم أكتفي بالقول المفيد؟!

عندما كان سعد غارقًا في بحور التيه دون طوق.. جالسًا على كرسيه القريب من شاشة العرض ذات الستين بوصة ومحصورًا بين أركان الكافيه المتلونة بالبرتقالي الفاتح الخافت.. جاءه صوت «أنس» يُحيي أصدقاءه الذين يعرفهم في الجوار، فأنس زبون قديم للمكان.

وصل «أنس» إلى الطاولة المستديرة التي يجلس عليها «سعد».

- أهلًا أهلًا.

جمعهما سلام واحتضان، ثم قال أنس ليكسر حاجز الصمت:

- إزيك يا سعد؟!

- حبيبي، أخبارك؟

كان سعد لا يزال مُبعثر الانتباه، فقالها ببرود وتيهٍ:

- الحمد لله يا صحبي رضا.. واحشنا يا عم.

باغته أنس فرد سريعًا:

- وانت كمان والله.

صمتوا قليلًا لبرهة، فجاءهم الصوت:

- تشربوا إيه يا بشوات؟

رَدَّ عليه أنس:

- اتنين قهوة على الريـ.. مجدي؟!

كان مجدي الذي يتحدث.

انتفض أنس ومن ثم تبعه سعد وتلاقت الصدور احتضانًا والخدود تقبيلًا.. لم يأتِ أنس أو سعد مدةً طويلة.. ومن ثم لم يريا «مجدي» مدة أطول. جلس معهما بكرسي ثالث جذبه من طاولة مجاورة، وتحدث الثلاثة قليلًا عن أحوالهم، وبعدما انتهوا من حديث قصير نطق مجدي وهو يهمّ بالذهاب:

- النهارده ليلتكم يا شباب.. عايزكوا تاخدوا راحتكم على الآخر.. الكافيه ده بتاعكم.

لطالما كان مجدي أصيلًا ومعروفًا بشهامته..صمت الجمع قليلًا ليقطع مجدي الصمت متسائلًا:

- مالك يا سعد شكلك تعبان؟!

رَدَّ سعد سريعًا:

- لا لا.. ولا حاجة دي بس الدنيا!

- صحيح.. الدنيا!

قالها بنبرةٍ تدلُّ على الألم العميق الساكن به، ثم زَفَرَ وكأنما يعدم الحزن ويتخلص منه.. متفائل هو.. رَدَّ أنس بعد صمتِهم بُرهةً:

- لا بقولكم إيه؟! إحنا جايين نفكّ شويه.. سيبكم بقا من الدنيا وقرفها!

- عندك حق يا أُنس..أسيبكم أنا تاخدوا راحتكم.. الليلة على حساب الكافيه.. عايزكم تروقوا، لو عوزتوني أنا في المكتب اللي هناك ده.

ثم أشار مجدي إلى مكتبٍ صغير يُدير منه المكان، فشكره صديقاه.

غادر مجدي الطاولة ليقوم بعمله بإدارة الكافيه، ثم دَوَّى صمتٌ طويل، وكأنهما ينفردان بذلك المكان الشاسع وحدهما، فأتى صوت أنس مفاجئًا:

- مالك يا سعد؟!

صمت سعد قليلًا حيث كان رأسه مُطرقًا لأسفل، ثم رفع رأسه إلى الأعلى.. لتلتقي الأعين.

- أقولك إيه ولا إيه.. أقولك على الدنيا واللي بتعمله فيا ولا قدري اللي ماسح بيا الأرض!

صمتَ ثانيتين، ثم تابَعَ بنبرة مكسورة:

- ولّا البلوه اللي أنا فيها دلوقتي!

- بلوة إيه يبني.. إيه اللي حصل؟

ظهرت طلاسم الانتباه على وجه أنس فأشار له سعد بأن اقترب، فاتسعت عينا «أنس» وقد ظنَّ أن سعد قد عمل (بلوى) حقيقية بالفعل كما قال، ولكن سرعان ما جاء الوحي من سعد عندما اقترب بمحاذاته، و..

- عارف «سليمان منصور»؟!

قالها سعد هامسًا، فزاد توتر «أنس» عندما سمع بذلك الاسم، عندما سمع بذلك الاسم ليردَّ متعجبًا.. فرَدَّ:

- يخربيتك.. ماله؟!

- حلمت بأنه مات قبل ما يموت!

زَفَرَ أنس هواء الفزع والشكِّ عندما قال سعد ذلك، فردَّ ضاحكًا:

- وقعت قلبي في رجليّ الله يخربيتك.. فيها إيه يعني لما حلمت بيه؟!

- ياض مش حلم عادي.. ده.. ده.. أفهمك إزاي بس!

صمت قليلًا ثم أشار بيده أن اقترب، فتابَعَ:

- بص أنا حلمت بست بتقولي حاجات لِسَّه محصلتش!

أنس، وهو يضحك:

- إيه يا بني الهبل ده؟!

- ما تسمع بقا!

أشار أنس بيده أن أكمل، فتابَعَ سعد:

- الست دي بتقول عليا إني المختار.. والمختارين دول ليهم مميزات.

- لا ده انت فوّت خالص!

زَفَرَ سعد بضيقٍ، ثم همّ بالرحيل وهو يقول بعصبيةٍ:

- يوووه بقولك إيه.. أنا ماشي.

أمسك أنس بمعصمه وقال باعتذار:

- تمشي إيه يا اهبل! اقعد.

سكت قليلًا، ثم أضاف:

- كمل.. أنا سامعك.

زفر سعد مرةً أخرى ثم شَرَعَ في الإكمال:

- المختارين دول اللي على حسب قول الست دي ليهم مميزات.. زي مثلًا على حسب كلامها انه بيعرف الحاجة قبل ما تحصل!

ضحك أنس وهو يقول:

- ومين اللي قالك الكلام ده؟!

- الست اللي بقولك عليها دي.

أنس باستهزاء:

- إنت ليك مخيلة جاحدة والله!

لا تتعجب، «جاحد» بالعامية المصرية تعني الرائع والجميل والشيء الذي لا مثيل له.

- مش بهزر والله.. وقالت لي كمان إني كل ما أنام هقابلها.

- يعني كل ما تنام هتشوفها؟!

هز رأسه بالإيجاب، فلم يرد أنس إلا بالابتسام، فأكملَ سعد:

- أنا مش عارف أعمل إيه!

رَدَّ أنس بعدم مسئولية:

- مش هتعمل حاجه.. طنّش.

- يبني انت لا إما اهبل لا إما اهبل!.. أطنش إزاي؟!

ضحك أنس وهو ينظر بعينين متلألئتين في عيني سعد، فأكملَ سعد مبتسمًا:

- إيه ياض اتهبلت؟ بتضحك ليه؟!

- أول مره أشوفك بتتكلم بجد كده!

ضحك مرةً أخرى، ثم تابَعَ:

- ده انت حتى وشك أصفر!

ابتسم سعد للمرة الثانية على التوالي وهو يقول:

- ماشي يا عجل البحر.

- إكسيوز مي؟!

- معزة البحر؟!

- إنت عبيط يابني؟!

- فراشة البحر؟!

- إنا لله وإنا إليه راجعون، هو أي حاجة فيها بحر وخلاص؟ ربنا ما يحرمك منه!

- هو إيه؟

- الهبل! هو فيه غيره يا ابن العبيطة!

ضَحِكَا بُرهةً، ثم انسلَّ الصمت بعدما تيقّن الاثنان أنهما ثقيلا الدم.

بينما هما غارقان في كوبٍ من السكوت حضر النادل إلى الطاولة وجاء بالمشروبات..وضع فنجانين من القهوة وكوبين من الماء ثم أتى بعبوتين من المشروب الغازي «كوكا كولا».. ثم قال بتعثُّر:

- اتفضلوا يا بشوات.

رَدَّ عليه أنس بضيقٍ:

- ما بدري يا عّم عصام!

اعتذر لهم النادل سريعًا دون انتظار رَدٍّ منهما، ثم غادر الطاولة وترك سعد وأنس جالسين، كُلٌّ منهما ينظر إلى الشارع ويرى ملامح الناس القليلة الغائمة.. تركهما غارقين في غياهب الصمت.

تجري القهوة سريعًا في مضمار السير من الفم وإلى المعدة..ينظر كلٌّ منهم حينًا من الدهر إلى السقف وحينًا آخر إلى الشارع المزدحم بالأرواح الميتة.

استغرق الأمر دقيقتين حتى انتهى كل واحد منهما من شُرب قهوته. شرباها على عَجَلٍ، نظر كلٌّ منهما في عين الآخر وهما يواسيان بعضهما

البعض، وهما يتكلمان بلغة الأعين..لغة المنكسرين.. ليس كل الانكسار من الحبِّ، فهناك انكسار الدنيا أيضًا، الدنيا تزلزل، تدفن، تكسر، تجلب كدمات الروح هرولةً وركضاً.. قَطَعَ أنس حبال الصمت الجاري، فقال:

- يلا؟!

زَفَرَ سعد زفرة الانتهاء من درس العتاب لهذه الليلة، ثم هَزَّ رأسه بالإيجاب وهو يزمُّ شفتيه وينظر إلى الأرض.. نهض الاثنان من الكرسي ثم همّا بالرحيل، لكنهما تذكرا صديقهما مجدي، فذهبا إلى مكتبه الصغير ليُحيِّيَاهُ قبل أن يغادرا، فهما لا يعلمان متى سيريانه مرةً أخرى.. هذا إن طال بهما الأمد.. عندما وصلا كان مجدي يتحدث في الهاتف:

- ماشي يا قلبي.. أمو واه، خمسة أمو واه.

عندما رأى مجدي صديقيه اضطرب قليلًا، فـ..

- بقولك إيه يا روحي.. هبقى أكلمك كمان شوية.. حاضر.. حاضر.. باي.

مجدي موجهًا كلامه لأنس وسعد:

- حبايبنا!

رَدَّ عليه أنس ضاحكًا:

- إيه ده انت خطبت يسطا؟!

أنهاها بغمزةٍ، فرد مجدي ممازحًا:

- إنتو تعرفوا عني الكلام ده؟!

دوَّت ضحكاتهم في المكان وقد نسوا همومهم وأوجاعهم للحظات.. ضحكات من القلب الذي يأمل ليل نهار أن يضحك مرةً من مخدعه، تلاقت الأيادي في السلام والتحية ومن ثَمَّ تَبِعَتها أحضانٌ طويلة..وكأنهم لن يروا بعضهم بعضًا مرةً أخرى.

صافَحَ سعد وأنس صديقهما للمرة الأخيرة وخرجا من الكافيه ليلتقطا بعدها الهواء الطلق..كانا يتمشيان في شوارع فيصل المضيئة الخالية من البشر.. صامتين يضربهما الهواء.. كُلٌّ في أساريره، دقيقتين.

ظلا دقيقتين حتى وصلا إلى الطريق الفاصل.. الطريق الذي سيترك أحدهما الآخر فيه ويفترقان.. توقف الاثنان ثم نظرا في أعين بعضهما البعض، ثم أمسك أنس بيديه كتفي سعد، و..

- خليك بومب كده وعافر، متيأسش.

- محدش بومب على الدنيا.

انسلَّ صمتُ أنس وتَبِعَه صمتٌ أطول لسعد، ثم قاطَعه أنس:

- بس انا بقا بومب على الدنيا واللي فيها.

ثم ضَرَبَ بكفِّه ضربةً خفيفة قفا سعد ممازحًا، وتركه وركض ببطء في الطريق إلى منزله مانعًا أمورًا كثيرة من الانهمار.. أشار أنس وهو يجري ببطء ويُخفي وجهه بالسلام، فردَّها سعد هو الآخر وقد كان مبتسمًا.. لم يكن يعلم أن: أكثرُ الناس ضحكًا يوم إقبال الدنيا.. أكثرهم ألمًا يوم الوحدة. فليت الابتسامة تبقى على حالها.. وليت الألم كان سجينًا للقبور والعدمِ، وافترقا إلى لقاءٍ لا بد أن يكون قريبًا.. لا بد أن يكون كذلك.

الصورة السابعة

أنهى حاتم لقاءه مع الرجل العجوز مجهول الهوية، واتَّجه بالسيارة مسرعًا إلى بيت تالا كي يحضر الحفلة التي أقامها والدها وألحَّت عليه تالا لحضورها..

السرعة الآن ١٠٠ كيلومتر في الساعة.. وما زالت في تزايُد مستمر. في داخل السيارة السوداء كان حاتم يُدندن وهو يهزُّ رأسه بكلمات متقطعة من أغانٍ قديمة يُحبُّها. هَبَطَ الليل بمساعديه وبكامل أسلحتهم وعتادهم كي يطفئوا أنوار وشموس الأرض المؤقتة.

الشوارع تضيئها الأعمدة المنيرة على الجانبين، كانت الأشجار والورود رافعةً رأسها بفخر، فكانت تلعب دور الحُلي المزركشة التي تُزيّن العروس.. الشارع.

تأخَّر حاتم عن الحفلة، فالمسافة كانت طويلة إلى القطامية حيث كانت الڤيلا التي تعيش فيها ابنة رجل الأعمال الكبير «جلال العاشوري».. تالا.. وصل حاتم إلى بر الهدوء.

أسوار الڤيلا العالية كانت مُزينة بالمصابيح التي تتلون بألوان الطيف على الترتيب.. سُور رخامي منحوت من الروعة يلتفُّ حول الڤيلا كي يحميها من الوحشة والقُبح..وقد نجح في ذلك.

على البوابة العظيمة كان الزوار المدعوون يتوافدون باستمرار وبسيارات باهظة الثمن والجمال، ويقابلهم رجال الأمن بحفاوة وترحاب مع ابتسامة مصطنعة وكلمات ترحيبية أملاها عليهم – والد تالا – صاحب الحفلة.

كان المتوافدون عند البوابة كالطوابير يُلبُّون دعوة رجل الأعمال «جلال العاشوري» لهم لتلك الحفلة. كان طابورًا طويلًا يضجُّ بالسيارات: المرسيدس والچيب والفيراري والكمارو والدودج والأوودي وأخرى لم نسمع عنها من قبل وكأنها مصنوعة خصيصى لهم.. وبالفعل كانت كذلك.

كان حاتم في مؤخرة الوافدين.. يستمع داخل سيارته إلى الراديو ويضرب المقود مصدرًا إيقاعًا كي يتماشى مع إيقاع الأغنية التي يستمع لها.. ملّ الانتظار.. أمسك بهاتفه الذي كان تحت ذراعه اليُمنى بالقرب من مُغيِّر السُّرعات.

عندما أمسك به، فتح واجهة هاتفه الحديث وهمّ بالاتصال، ولكنّ تالا قطعت عليه ذلك.. اتصلت به قبل أن يفعل هو.

ابتسم ثم رد، فجاءته الموجات الصوتية:

– إنت فين دلوقتي؟! مش هتيجي الحفلة!

قالتها بنبرة فيها القليل من الضيق، فرد:

- أنا ع البوابة أهو ومستني دوري!

تالا وهي تضحك:

- دورك؟!

- أه والله ده زي الطابور!

تالا وهي ما زالت تضحك:

- طب اصبر هبعتلك جارد يدخلك من البوابة اللي ورا.

حاتم ممازحًا:

- خلاص أوكاي..خليه يجيب فشار معاه وهو جاي عشان أسلي نفسي بدل الملل ده.

- ماشي يا حاتم ماشي.. متتأخرش.

لم يرد حاتم عليها، لأنه لم يسمع صوتها حتى، فقد كان يهمّ بإغلاق واجهة المكالمة وقتها..لم يلبث دقيقة حتى جاءه رجل الأمن المفتول بالعضلات متسائلاً.

- أستاذ حاتم؟!

قالها الحارس متسائلًا، فرد حاتم بتكبر:

- أها أيوه.

- آنسة تالا مستنيا سعادتك جوا.. لو تسمحلي أوصل معاليك للبوابة الخلفية..

حاتم باستعجال:

- أه طبعًا.. اتفضل.

سمح له حاتم بالجلوس بالقرب منه داخل السيارة.. رافقه الحارس إلى البوابة الخلفية التي لم تقل جمالًا عن أختها الأمامية.. عندما وصلا كانت تالا تنتظره هناك داخل الفيلا جالسةً على كرسيّ مجاور لحوض السباحة.

- افتح البوابة.

قالها الحارس - ويبدو من طريقة أمره أنه قائد للحارسين اللذين يقفان ويحرسان البوابة - كي يقوما بفتح البوابة ويسمحا لهم بالدخول..خلت سيارة حاتم المرسيدس الأنيقة إلى الڤيلا.. مبنى أثريّ نُحت من الجمال.

اللون البنيّ الخافت كان لون الواجهة الخلفية، وتُزينها المصابيح صفراء اللون التي تدور من حولها.. في خلفية الڤيلا كانت هناك شُرفةٌ طويلة وعريضة وعلى أرضيتها الضيوف والزُّوارُ رفيعو المكانة ينتشرون بها.

تصطك الكؤوس بين أيادي الحاضرين من رجال الأعمال - الظاهرة والباطنة منها - وذو المناصب والكراسي الذين دعاهم رجل الأعمال جلال العاشوري - والد تالا.

موسيقى الجاز الهادئة كانت تسيطر على جو الحفل تمامًا.

على ساحة الڤيلا الخضراء كانت التماثيل الرخامية البيضاء على أشكال أحصنة وملائكة صغار – كما تخيلتها ديزني – تُزيّن المكان وتضيف له نكهةً أوروبيةً خالصة.

تلتفُّ الموائد والطاولات حول حوض السباحة الأزرق التي تضيئه المصابيح الهادئة من قاعة فتظهر أرضيته جميلةً للناظرين.

من فوق الشرفة الواسعة كان جلال يصافح بكلتا يديه المدعوين وبكل حفاوة ويُحييهم ويقدم لهم المشروبات وربما بنفسه ليظهر لهم الاحترام والتبجيل فهو في قلبه لا يريد سوى المصالح الشخصية لنفسه أما لو تحدثنا عن كبريائه فهو يلعنهم ويقول في نفسه: سآكل أعمالكم وأرمي بقاياها في القمامة، ولكن بابتسامات مُجاملة لم يسكن إلا وقد رحّب بالجميع.

«جلال العاشوري».

رجل يبلغ من العمر الستين إلا خمس سنوات، لكنه بذلك المظهر لا يُظهر سوى ثلاثين منها فقط.

كانت بدلته البيضاء تُنير المكان حوله ببريقها الواضح، وتعلوها وردة حمراء داخل الجيب العلويّ.. قصير القامة، أزرق العينين.. ذو بشرة بيضاء

ناصعة وشعر بني مموج ومرفوع للخلف وأنف طويل كانت تحمل نظارة للنظر من ماركة عالمية.

كان أجنبيًّا بشكل كليّ بمظهره الأنيق وجاذبيته الممغنطة.

بينما الكل في لهوه ومزاحه ومشربه وحديثه مع الآخر كان هناك جزء هادئ على الأرض الخضراء المنمقة.

طاولة مستديرة غُطّت بعباءة حمراء دكناء عليها قنينة شفافة وضع بين مياهها وردتين، واحدة حمراء والأخرى بنفسجية وكرسيان يقابلان بعضهما البعض على تلك الطاولة.

على الكرسي الأول كان حاتم بجاذبيته اللامعة وعلى الآخر بالتأكيد كانت تالا بجمالها الهادئ وقصر قامتها وعينين زرقاوين ورثتهما عن أبيها، وشعر كستنائيّ اللون قد انسدل على كتفيها، وأنف دقيق – على عكس أبيها– فيما يبدو أنها ورثتها من أمها البعيدة.. المتوفاة – كما قال لها أبوها في سِنٍّ صغيرة.

بفستان سماويّ اللون وشريط أحمر يلتفُّ حول خصرها وقد بدا ذلك الفستان مصنوعًا خصيصًا لها، وقد كان، فهذا الوجه الملائكي لا يجب عليه ارتداء أي شيء سوى الروعة والجمال.

كانت تلك تالا جالسة على الكرسي المواجه لحاتم الغارق في بروده المتقن الذي يزيد شعلة نار تالا عنوة.

قبل شهر مضى..

جميلٌ هذا المكان الهادئ وغير الهادئ في الوقت نفسه، يلجأ إليه كل شخص يحب تفريغ طاقته وغضبه على شكل طلقات نارية.. بسور طويل وعريض يلتف حول مساحة شاسعة من الأراضي كان ذلك المكان – الشهير بالطبع كما اعتقدت أنت – هو (نادي الرماية) الكامن في الهرم.

كانت تلك السيدة الجميلة ذات الثامنة والعشرين من العمر جالسةً على كرسيّ عام داخل المكان، وممسكةً بقنينة ماء باردة وتتجرع منها كل فترة والأخرى ومما يبدو فإنها على وشك أن تبدأ تمرينها على إطلاق الأعيرة النارية، عندما انتهت من تجرع الماء أعطت زجاجة الماء إلى رجل كان يقف بالقرب منها ويبدو أنه خادم لديها، التقط منها الزجاجة وأردف هو بإعطائها منشفة كي تمسح حُبيبات العرق القليلة.. عندما انتهت قامت لتذهب إلى مكمن إطلاق النار المقسم إلى عنابر أو غرف يتوزع عليها مطلقو النيران.

كانت الشمس حارقة تلهف وتأكل الوجوه الواقفة، لهذا كان عدد قليل جدًّا هو الموجود داخل النادي في هذا الوقت.

رداء رياضي كامل وقبعة ونظارة تقيها من الشمس كان هذا مظهر السيدة صغيرة السن ذات الشعر الكستنائيّ المتطاير، الذي اكتسب اللون الذهبي بعدما ضربت أشعة الشمس خصلاته الطويلة الرقيقة، بشرة بيضاء، وجسد ممشوق، يدلُّ على الغذاء المتكامل والرعاية السليمة.

قامت متجهة كي تبدأ بإطلاق النار، وقتما وصلت للمكان المنشود، قدّم لها خادمها السلاح الناريّ لتبدأ مهمتها في إفراغ طاقاتها وكسر غضبها البغيض.

ارتدت السماعة الكاتمة للصوت ومن بعدها نظارة عريضة مخصصة لذلك المكان.. وألقت نظرةً خاطفة نحو الهدف الدائري.. المكان هادئ ومناسب لتبدأ بعملها.. رفعت سلاحها الأسود الثقيل وصوبت نحو الهدف بعين واحدة مفتوحة وأخرى مغلقة.. تركيز.. كتم أنفاس.. الضغط على الزناد..

وانطلقت الرصاصة.

جيد، أصابت بدرجة سبعين في المائة في المرة الأولى، فرفعت يدها وصوبت وأطلقت طلقتين متتاليتين وكانت الاثنتان في المكان نفسه بدرجة ثمانين في المائة، يبدو أنها قديمة في هذا المكان، لم تخلع النظارة العريضة فقد أنزلتها لأسفل لترسو حول رقبتها الرفيعة.

نادت الخادم فحضر بسرعة وجاء بالماء البارد.

كل هذا ولم تلاحظ ذلك الشاب قوي البنية ذا الفانلة السوداء الملتصقة بجسده التي تبرز عضلاته.

شعره خفيف مُموَّج، ولديه بعض شعيرات متناثرة في ربوع ذقنه الحادة، ويحمل على عاتقيّ أنفه نظارة شمسية سوداء.

بذراعيه الممتلئين كان هو الآخر ممسكًا بسلاحه ويصوب نحو الهدف المرسوم وبالقرب منها، لم يلبث ثوانٍ إلا وقد أطلق النار من مسدسه الأسود، ولم يفاجأ قط بأنه قد أصاب الهدف بالتمام والكمال، وبنسبة مائة بالمائة في وسط أصغر دائرة في الهدف المُصوّب نحوه وتبعتها طلقتان أخريان في نفس المكان.

لا شك في أن هذا الرجل مجتهد ويتدرب كثيرًا.. أو أنه قناص قديم في الجيش وقد ابتعد عنه.. يبدو أنه الاختيار الثاني، وقد كان.

انتهى مما بدأه وقام بالرجوع إلى كرسيه الخاص، لم يكن لديه أي خُدام، مجرد شخص عادي يملك بعض الغضب ليفتك به في ذلك المكان.

شرب ماءه وارتوى ومسح بيده العرق المُسرّب من جبينه وهَمَّ بالوقوف مره أخرى متجهًا نحو جزئه الصغير ليطلق النار مرة أخرى، وفي هذه المرة لاحظ ظَلَّ تلك الفتاة الجذابة التي تمشي بالقرب منه، لم يلتفت لها ولكنه فكَّر بذلك، لكن كبرياءه سيطر على الموقف وسار في طريقه.

ارتدى النظارة والسماعة الكاتمة للصوت المخصصة للإطلاق وأخرج مسدسه من جعبته، ثم رفع منكبيه، وصوب، و..

بالقرب من هذا المشهد كانت السيدة جاهزة لإطلاق النار فصوبت هي الأخرى وعندما همّت بالإطلاق ظهرت الشمس الحارقة أمامها لتمنع عنها الرؤية، ولكن فات الأوان حينها فقد أطلقت السيدة الصغيرة النار عندما ضربتها الشمس بسطوعها فتغير اتجاه الطلقة النارية لأعلى لتصطدم بسور النادي الأبيض العالي وتصطدم هي بالجزء الصلب من الغرفة، فوقعت على الأرض مغشيًّا عليها نتيجة ردة الفعل القوية لإطلاق النار، وهنا لم يطلق الرجل القوي النار بل ركض ناحية تلك السيدة ليرى ما بها وماذا حدث.

عندما وصل لم يقف مذهولًا ويرى كالمشاهدين بل قرّب إصبعيه السبابة والوسطى إلى رقبتها بسرعة ليتحسَّس عن نبض فاطمأنَّ عندما وجدها تنبض، ولم يظل ساكنًا بل حملها على ذراعيه سريعًا – بعدما تكاثرت الأعداد بالجوار – إلى الكرسي العام الطويل فطَرَحَها ببطءٍ عليه، ورَكَضَ بسرعة ليحضر الماء ويسكبه على وجهها.. قّلت الأعداد بعدما تأكدوا أنها بخير، وأنها مجرد حالة إغماء بسيطة وستستيقظ بعد قليل وبقي آخرون.. مرة أخرى وذلك الرجل يسكب المياه الباردة لتسيل بين وديان ملامح ذلك الجمال

الملائكيّ، وفي الثالثة انتفضت من مكانها لتجعل صدرها يعلو وينخفض بشدة.

رأت بعض الناس يلتفون حولها فذُهلت من المنظر، فهي لم تعتد مثل تلك المواقف من قبل.. لم تلبث ثانية إلا وقد جاءها صوت أحدهم وكان يجلس بقربها ولم تلاحظه.

- إنتِ كويسه؟!

بادرته باستعجال بعدما أدركت الموقف ورأته:

- أه أه، الحمد لله.. ميرسي أوي يا جماعة.

هنا نطق رجل عجوز وبدا من مظهره أنه عامل النظافة:

- إنتِ لازم تشكري البيه.. هو اللي لحقك يابنتي.

ارتبكت السيدة الصغيرة واعتدلت بسرعة وانقلب لون وجهها للأحمر وهي تقول بعدما انفض الجميع ولم يتبقَّ سواهما:

- شـ شكرًا جدًّا لحضرتك.

رد وهو يقوم من على الكرسي:

- لا شكر على واجب.. لو أي حد في مكاني كان عمل كده.

هنا هَمَّ بالرحيل، ولكنه لمح جرحًا بسيطًا أسفل كوعها الصغير تسيل منه الدماء المختلطة بالرمال نتيجة سقوطها فنطق:

- إيه ده انتِ اتعورتي؟!

- بجد! فين ده؟!

طريقة «شقط» رائعة ومضمونة، لا ينكر هذا الرجل إعجابه بتلك السيدة الفاتنة.. جعلت تدور بذراعها يمنة ويسرة على أمل أن تجد الجررح، ولكنها لم تفعل، فرد:

- لا اصبري ثواني، هروح للعربية وارجع بسرعة.

سار بخطوات سريعة وطويلة نحو بوابة الخروج، وعندما اختفى عن ناظرها ركض بسرعة تجاه السيارة ليحضر حقيبة الإسعافات الأولية.. التقطها من سيارته وهرول رجوعًا إليها وعندما ظهر في مرمى بصرها اعتدل في مشيته، ومشى ببطء مع القليل من السرعة بين الحين والآخر حتى وصل إليها.

- اتأخرت!

- لا لا أبدًا، معلش تعبت حضرتك معايا.

- ولا تعب ولا حاجة يا فندم.

- فندم! ناديني تالا أحسن.

اضطرب الرجل من مباغتتها، فرد سريعًا:

- أهلًا بسعادتك آنسة تالا.

هنا فَتَحَ الرجل حقيبة الإسعافات الأولية وأخرج الضمادات ونزع قطعةً من القطن.

- تسمحيلي؟!

- أه طبعًا اتفضل.

أمسك بقطعة من القطن التي وضع عليها مطهرًا، ومسح بها مكان الجرح، ثم أخرج ضمادةً وفضَّها، وألصقها مكان الجرح.

- شكرًا جدًّا لحضرتك مش عارفة أشكرك إزاي!

- متشكرينيش، أنا عملت الواجب والله.

ساد الصمت لبرهة، ثم نطقت تالا:

- ممكن أعزمك على حاجة نشربها بعد ما حضرتك تخلص وياريت مترفضش طلبي!

- ربنا يخليكي والله بس الـ..

قاطعته تالا:

- لا بعد إذن حضرتك يا.. اتصور لغاية دلوقتي معرفتش اسمك!

- حاتم.

مَدَّ يده ليصافحها فتلاقت الأيدي بحفاوةٍ وترحاب.

- وأنا تالا، اتشرفت بحضرتك.

- أنا أكتر والله.

هنا ظَهَرَ خادم تلك السيدة المدعوة تالا وهو يركض نحوهم.. وعندما وصل تفجرت قنبلة كلمات في وجه الخادم.

- حضرتك كنت فين ده كله.. سايبني هنا لوحدي.. لو الأستاذ حاتم ملحقنيش دلوقتي كان زماني مُت.. وبسببك!

كانت تشير بيدها إلى حاتم عندما وصلت لذكر اسمه، فرد الخادم في خضوع وأسف:

- معلش والله يا آنسة تالا يا بنتي كنت في الحمام.

هنا نظرت تالا إلى حاتم ورأت نظرة الشفقة على الخادم لتوبيخه هكذا وبالرغم من سنه الكبيرة إلا أنه مثل والدها ولكن معاملتها تسوء أحيانًا. باغت حاتم في الحديث فنطق:

- معلش عشان خاطري يا آنسة تالا سامحيه.. الراجل كان مزنوق يعني فا كده يعني..هيعمل بيبي فين طيب؟!

أنهاها ببسمة، فضحك الجميع ومن فيهم الخادم البسيط العجوز.

فردت تالا:

- إنت طيب اوي يا حاتم بيه.. عشان خاطر حاتم بيه بس ها.. ماشي يعم فتحي!

وأشارت بأصبعها السبابة ترفعها وتخفضها في اتجاه عم فتحي الخادم.

احمرّ وجه حاتم ولم يستطع الرد - على عكس طبيعته، فوجه الخادم إليه الكلام بصوت خفيض وبساطة شديدة:

- شكرًا يبني.. معلش تعبناك معانا.

رد حاتم بخجل:

- العفو يا عمي.. أي حد في مكاني كان المفروض يعمل كده.

انتهى الحديث بينهما وانتهى اللقاء بدوره وتكررت الزيارات والمقابلات وصارا صديقين متلازمين يذهبان للنادي معًا ويرجعان معًا، وعادا إلى شبابهما من جديد، وعادت البسمة نادرة الظهور على وجهيهما وأشرقت الأيام بنورها الوضاء.. ولكن هل هذا هو كل شيء؟!

كانت تلك تالا جالسة على الكرسي المواجه لحاتم الغارق في بروده المتقن الذي يزيد شعلة نار تالا عنوة.

هل هي تحبه؟! وإن كانت، فهي لن تعرف قول ذلك، وفي الحقيقة هي فقط متعلقة به، وهل تدري أنها إن سمعت حاتم يقول لها كلمةً تعني الحب

فستقول له: إنت زي أخويا بالضبط! وتبدأ الضحك، لكن وبالطبع هو لن يقول ذلك أبدًا، فقلبه وروحه أموات منذ قديم الأزل.

كانا صديقين منذ مدة ليست بالطويلة، ولكن ومنذ مدة قصيرة أيضًا فقد ابتعد حاتم عنها وترك لحياته لجام الوحدة.

فلم يكن يبالي بتالا أو بوالد تالا نفسه، أهم شيء لديه هو المال والعمل والهدوء.. ومن لا يحب المال والهدوء؟! بعيدًا عن العمل طبعًا.. من؟!

لا يريد شيئًا آخر.. عدا ذلك فهي استراحة قصيرة يقضيها حاتم – يتيم الأب – للتسلية كي لا يملّ.

بدلة سوداء راقية وضع لها تاج الجاذبية كان يرتديها حاتم وبساعة روليكس جديدة غير التي كان يرتديها مسبقًا.. شعر مموج قد وضع له بديلًا للزيت ليكسبه لمعانًا إلى لمعانه.

– إزيك يا حاتم؟

حاتم ببرود:

– تمام الحمد لله.

– إيه رأيك في الحفلة؟!

– هي فين الحفلة دي.. أنا مشوفتش حاجه خالص.

قالها كي يزيد من غيظها ممازحًا، فردت تالا وهي تزمّ شفتيها بغضب:

- بجد.. طب يلا أوريهالك.

نطق بفصحى وكأنه من أهل قريش:

- أين الخمر والنساء؟!

قامت تالا وهي تجذبه من يده وتضحك، ثم سارا بالقرب من بعضهما البعض إلى أن وصلا إلى صخب الحفلة وعُلو الهمهمات الصادرة من المدعوين.

وهما يسيران كانت تالا تُسلِّم على من تعرفه ومن لا تعرفه وتجعل من حاتم دُمية توقفها وتحركها وقتما شاءت كي تغيظه ولو قليلًا.

بروده يقتلها.

ولكن لا فائدة.. لم ولن يُعرها أي اهتمام أو ردة فعل يُذكر.. بل كان متفاعلًا مع الجميع وهم أيضًا بادلوه الإعجاب والتقدير فأصبح معروفًا لدى الجميع ويحيونه متى، رأوه فهو جذاب بطبعه ومظهره المنمق وابتسامته المشرقة.

اقتربا من حوض السباحة فالتقطت تالا كأسين من الشراب من على اللوح الخشبي المُزيّن الذي يحمله الخدم بحفاوة ليقدموا للضيوف الموجودين

كأسًا وابتسامة كي يبدوا بمظهر جيد وجميل فيقبلهم الناس بترحاب وبعض كلماتٍ من المديح.

من ضمن هؤلاء الخدم كان هناك خادم مُميز أُعجب به جميع الحاضرون من مظهره الأنيق وابتسامته التي وُلدت جزءًا من شخصيته وجسده.

بدلة بيضاء ناصعة عُلقّت بها ببيونة حمراء ومن تحتها بنطالٌ أسود وحذاء أسود يُنير ببريقه الطرقات التي يمشي عليها، شعر خفيف منسدل إلى الخلف وعينان خضراوان وأنف دقيق إلى حد ما، ثم جسد ممشوق ومفتولٌ بالعضلات تلتصق ملابسه بذراعيه المليئتين.

كان حاتم وتالا قد انتهيا من تجرعِ كأسيهما ويتمشيان ببطء بين الحضور والطاولات إلى أن وصلا إلى المائدة المفتوحة – البوفيه المفتوح .. أخذت تالا طبقًا وتَبِعَها حاتم بأخذ طبقٍ هو الآخر ثم ملعقة وشوكة وسكينًا حادًّا صغيرًا وشرعا يمرران السكين بين الأطباق ويختاران من الأصناف والأنواع من الطعام والحلويات ما يشتهيان.. وهما يمزحان ويتناولان طعامهما ظهر الخادم الأنيق بوجه أبيض بشوش أمام حاتم وتالا اللذين كانا ينظران إلى وجوه الحاضرين غير العاديين بالمرة، فكلهم ساسة ورجال أعمال كبار من دول عدة وإعلاميين وصحفيين، وأُناس كثيرة من هذا النوع.

كان ظهرهما للمائدة المفتوحة عندما ظهر الخادم المميز وأقبل عليهما.

- اتفضلوا معاليكوا.

قدّم كأسًا من الشراب لكل منهما ولم يرفضاه بالتأكيد؛ فقد كان أسلوبه مهذبًا معهما وتبدو عليه معالم الرُّقيّ.

رد عليه حاتم مبتسمًا:

- أشكرك.

تبعته تالا مبتسمةً هي الأخرى:

- ميرسي ليك.

صمتت لبرهة، ثم أضافت قبل أن يذهب:

- أنا أوّل مرة أشوفك هنا!

رد الخادم بأدب:

- أنا لسه جديد حضرتك، مستر جلال طلبني امبارح مخصوص عشان الحفل.

ردّت تالا بحفاوة:

- ممتاز! بابا بيعرف يختار.. شكلك واحد محترم.

الخادم وهو ينحني احترامًا:

- ده من ذوق معاليكي يا فندم.

كان الخادم يُكلم تالا وحاتم يتجرّع مشروبه المُثلج، ولم يعرهما أي انتباه.. لكن عندما اقترب الخادم من إنهاء حديثه القصير مع تالا نظر حاتم لعينيه ورأى شيئًا غريبًا!

رأى حاتم في عيني الخادم نظرة خُبثٍ ومكرٍ، ولكنه لم يُعره أي انتباه، فهو يعرف بالتأكيد أن من يعمل بتلك الأماكن لا بد أن يكون كذلك كي يعمل بها براتب مُغرٍ.

أنهى الخادم حديثه مع تالا شاكرًا ونظرت تالا لحاتم لترى هل قتلته غيظًا أم مات من الغيرة، ولكنها تفاجأت بأنه لا يراها بالأصل، وملامحه ساكنة باردة تجاه السماء.. عندما انتهوا أعاد حاتم نظره إليهما ورد على شكر الخادم فوجده يرمي نظره نحو حاتم.. نظرةً صامتة.. لكنها تعني الكثير.

ذهب الخادم في طريقه واختفى بين الحضور، فألقى حاتم عينيه خلفه كي يتابعه ويرى لأين يذهب ولكن لا.. لم يجد شيئًا.. ولا ظِلَّه حتى.

شَكَّ حاتم لبرهة في ذلك الخادم الغريب، ولكن سرعان ما ذهب شكُّه عندما ساقه عقله بأن الخادم يخدم الضيوف في داخل الڤيلا أيضًا، فهو رجل نشيط..ثم التقت أقدام حاتم وتالا بالأرض، وتركاها حرةً طليقةً إلى داخل الڤيلا.

الصورة الثامنة

هل العيش وحيدًا يُسعد الروح؟!

أحيانًا كثيرة إن كنت تستمتع بوحدتك. ماذا إذن عن العاجز عن الاستمتاع بحاضره الذي تمُسك به حبال الماضي الأليم المتينة، ومن طرف آخر تشدُّه سلاسل صدئة نحو مستقبل مبعثر الملامح؟!

هل سيقدر على العيش هكذا دون اختلاطٍ بالعامة؟!

بعد الانتهاء من بعض المعادلات النفسية البسيطة، نعم بالتأكيد، وسيقول في نفسه: تبًّا للعامة! وتحيا وحدتي الخاصة.

• الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

كان سعد جالسًا على كرسيه الخشبي القديم الذي ورثه عن أبيه الراحل – منذ كان بعمر الخامسة – القابع داخل شرفته متوسطة الحجم، يحوم بعينيه من فوق تلك الشرفة على شوارع حارته المعتمة الخالية من الناس وصخبهم ومسندًا يده على سورها المُترب، لا يعبأ بشيء.

تتخبطه نسمات الهواء الرقيقة فتبعثر خصلات شعره الطويلة نسبيًّا ويتبعثر معها تراب تفكيره المضطرب.

كانت نتيجة لقائه مع صديقه الوحيد «أنس» هي عودة تذكّره للماضي، لا يدري لِمَ هو كئيب لهذه الدرجة وهو أفضل حالًا من أرواح يُدميها الوجع والفقر وقِلة الحيلة، هو لا يفعل شيئًا غير الإحساس بأنه حزين وهو غير ذلك تمامًا، غالبًا عندما لا تكون مصابًا بأي مرض وتشعر بأنك مريض لسبب تجهله يأتيك المرض من حيث لا تدري.. العقل الباطن وأفعاله!

ألهذا نمرض؟! أبمجرد شعورنا بشيء لا وجود له، نُصاب؟! هكذا نحن البشر.كانت هناك نتيجة أخرى لهذا اللقاء، وهي نسيانه أحداث أيامه الغريبة السابقة، هل نسي فعلًا؟! كيف سيترك الأمر برمته يذهب عن تفكيره؟!

وقت أن كانت خلايا عقله تنسج تفكيرًا مضطربًا لأحداث لم يكن قادرًا على ترتيبها في نفسه، فكَّر في أن يعود مرة أخرى لعمله وتعود الحياة إلى مجاريها وبعد أن نوى فعل ذلك بالفعل سقطت جفونه من الطابق العلوي حتى الطابق الأرضي ليغفو في نومه ويهرب مما هو فيه وينهي كل شيء بغمضة عين.. رائعٌ هو الهروبُ من كل شيءٍ إلى النوم.. ومؤلم.

***

– أهلًا أهلًا، أنرت المكان أيها المختار.

كان الصوت يتردد بصدى داخل أذنيه وهو يتلفت يمنة ويسرة، المكان مثل آخر مرة رآه فيها، الأرض متشققة سوداء والسماء غير صافية تمامًا، والغربان تطوف في السماء وتصيح بصوتها المخيف، هنا ظهر الأسد الأسود الضخم يلعق جلده، وأسنانه الحادة الطويلة تُظهر بريقها لترمي الرعب للناظرين، ولكن كل هذا قد اعتاده «سعد» ورآه من قبل، فقلّت نسبة الخوف بمقدار جيد، صمت سعد ولم يرد على تلك العجوز القبيحة فأكملت هي:

– أرى أنك ما زلت خائفًا!!

رَدَّ عليها باضطراب:

– لا لست خائفًا.

– لا تكذب فأنا أتنفس الخوف بين ضلوعك، أحذرك، فقطي الأليف يشمُّ رائحة الخوف أيضًا.

حدَّق به ثم بها فلم يكن يملك الرد فتابعت:

– إذن قل لي.. هل تيقنت من صحة ما قلته لك؟!

سكن لبرهة، ثم رد بتعجب واضطراب:

- نعم، لكن كيف؟!

ردت بغموض:

- لا تسأل كثيرًا فلا إجابات هنا.

صمتت لثانية ثم أضافت:

- أسمعُ الفضول يزلزل تفكيرك - صمتتْ لثانيةٍ لتضيف - هل تريد أن تعرف من القاتل؟!

لم يرد عليها ونظر إلى الأرض بعين زائغة ثم رفع رأسه إليها وظل ينظر لعينيها الواسعتين ولم يُعقّب، فردت على نفسها:

- عندما يزأر وقت غروب.. سترى القاتل المغضوب.

قالتها بصوت فحيح الثعابين، وقد ظهر لسعد أن عينيها تلونتا بالأحمر المُشع، وظَلَّ صدى كلماتها يتردد في المكان بصوتٍ عالٍ.

فاهتزت تجاعيده ولم يعرف ماذا يقول حينها، وطفقت شفتاه تتحركان باضطراب، وانصبَّ العرق من جبينه مسببًا خيوطًا مائية تقع على الأرض المتشققة، ولم يلبث إلا وقد رفعت العجوز الشمطاء المخيفة يدها الضخمة التي حملت كُمـًّا طويلًا مزركشًا بعظام صغيرة، فقد كان رداؤها المخيف يُشبه ملابس نساء أمريكا القديمة. رفعت يدها التي خرجت منها أضواء

البروق وأصوات الرعود لتنطلق الرياح حاملةً أحجار الأرض كإعصار في وجه سعد لتقذفه بعيدًا إلى مكان مجهول.

لم تمر ثوانٍ إلا وقد هدأ المكان وسكنت الأصوات.. فهمست العجوز لنفسها بصوت يملؤه الخبث والغيظ:

- يا له من أحمق جبان!

❋❋❋

داخل قاعة طويلة وعريضة ذات أرضية الشايش المربعة المرقعة بالأبيض والأسود، تجمع عدد كبير منهم حول تلك القاعة وقوفًا ومن وراء كل فرد منهم كرسي مرتفع شامخ، تنتهي تلك القاعة بثلاثة كراسي كبيرة عن الأخريات يجلسون عليها، وفوق تلك الكراسي الثلاث كان هناك شعارٌ غريب لم يفهم كينونته أحد منهم قط، لكن الرئيس يفعل.

كانوا يرتدون عباءات سوداء مُكحلة، لا وجود للونٍ آخر غير الأسود في هذا المكان.

ظهر رجل عظيم ضخم من الباب وهو يمسك بيده اليسرى عصا طويلة برأسها شعار غريب على شكل كرة متلألئة. دخل حتى مقدمة القاعة ثم استقرَّ واقفًا بشموخ، وهنا لاحظه الجميع، ونظروا إليه في رهبة وتعظيم، وأخذ يَدُكُّ في الأرض عدة طرقات حتى هدأت الأصوات، فنظر الجميع إليه في ترقُّب حتى ظهر الرئيس ومن ورائه مساعداه الاثنان.

استقر رئيس المجلس في منتصف الكراسي الثلاثة واقفًا وتبعه مساعداه

واحد على يمينه والآخر على يساره، ثم نطق ليقولوا معًا بصوت واحد بلغة غريبة لا يُفهم لها معنى وكأنها ترنيماتٌ أو تعاويذ، فقد كان هذا قسمهم الذي يتلونه في بداية كل اجتماع.

صمت «الظلم» - رئيس المجلس لبرهة، ثم قال:

- مساء الخير، إخوتي.

ردوا عليه بالمثل، ثم أضاف وهو يشير لهم:

- تفضلوا من فضلكم.

هنا جلس جميع الواقفين وهدأت القاعة وسكنت الأجواء، ثم:

- العرب الحمقى، ألا ينكسرون وتخمد أجسادهم أبدًا!

قالها «الظلم» في منتصف الاجتماع السري مفتتحًا مجال الحديث، فجاءه صوت أحد الأعضاء يُسمّى «الحق» بنبرة واثقة عاقلة:

- صدقني سيدي الرئيس، إنهم ضعفاء إلى أقصى حدٍّ، لكن المشكلة تكمن في أن هناك مجموعة من الشباب لا تكلُّ ولا تملُّ حتى توصل الإدراك والحقيقة لعقول باقي الشعب متوسط العلم، نحن إن تمكنا من إقامة حصار الدمار التعليمي والديني والترفيهي والثقافي عليهم سنفعل بالمثل مع الدول الأخرى الضعيفة، فمصر إن نكست نكس الباقون.

أكمل عضو آخر كان اسمه «الفشل»:

- لقد استطعنا التحكُّم في شتى أمور حياتهم، تعليمهم أفشلناه، عدلهم وقتلناه، الفتنة بين أديانهم وأشعلناها وبين طبقاتهم الاجتماعية كذلك، لم نصنع سيئًا إلا وقد أقمنا عليهم الحدَّ به، ولكنْ هُمْ كما هُمْ، ولم يتزحزحوا!

هنا رَدَّ عليهم «الظلم» بتساؤل:

- إذًا، وما العمل؟!

ردّت عليه «الخيانة» بتهذيب:

- اسمح لي سيدي الرئيس.. هناك شباب مثقفون وباحثون يدركون ما يجري في بلادهم ويستطيعون حمايته والدفاع عنه أيضًا، وهنا السؤال، هل نقدر على إبادتهم؟!

قال «الظلم» بحسم:

- بالطبع لا نقدر!

فتابعت «الخيانة» بلسان واثق:

- إذن نقطع هؤلاء الشباب عن مصدر ثقافتهم، ونُجرِّدهم من أخلاقياتهم ومبادئهم، ولكن في سابق الأمر نجعلهم يفقدون الصبر تمامًا، فيصبحون يائسين كليًّا عن الصبر وانتظار الفرج والتقدم، ولكي نفعل ذلك يجب هَزُّ الثقة بين المؤمن ودينه، والمواطن ووطنه، ومن ثَمَّ ستصبح الأرض مُنقسمة

متفرقة، مُعظمها بالأصل مُخطئ، وحينها نقوم نحن بزرع الآثام بينهم، ولكن لفعل هذا يجب علينا فعل شيء ما؟!

عاجَلَها «الظلم» بتساؤل:

- وما هو؟!

أكملت «الخيانة» بثقة:

- أولًا نغتال بعض الرجال المهمين في الدولة لنشعل الانقسام بينهم ونقسمهم إلى طوائف معادية، كل منهم يكره الآخر، وقد تصل نتيجة ذلك الأمر إلى قتل بعضهم البعض، وبهذا نبدأ بإشعال فتيل القنبلة.

- وكيف نفعل ذلك؟!

قالها «الظلم» ببرود، فردت عليه «الخيانة» بثقة وعلى وجهها ابتسامة غامضة:

- اترك لي إذا سمحت هذه المهمة.

***

في اليوم التالي شروقًا رقرقت العصافير في لوحة السماء الصافية لتعلن عن بزوغ شمس جديدة ويوم آخر في تلك الدنيا.

استيقظ بصداع يفتك برأسه، وقد اكتشف أنه قد نام على الكرسي الخشبي القديم منذ البارحة واضعًا رأسه على ذراعه فتضرج وجهه بخطوط عشوائية حمراء على جبهته الواسعة، ويتوسطها العرق يسيل بين مجاريها.

قام من فوق الكرسي ليتمطع ويشدُّ أطرافه لأعلى ويطقطق أصابعه الطويلة.. وفي باله ما رآه من أمور غريبة في ذلك الحلم.

اقتلع منشفته من على كرسيٍّ كان موجودًا في الصالة وساق قدميه نحو الحمام ليفعل ما يقوم به كل يوم.

داخل الحمام..

كان ينظر بعينين تعبتين إلى المرآة وقد ظهر جذعه عاريًا ليظهر طُلسمًا قد نسيه جراء الأحداث المتتالية السريعة، حينها تذكر جيدًا حلمه وما قالته السيدة العجوز له وقتها، وقرر أن يذهب لعمله ويترك العُزلة التي يعيشها ويكتفي بغيابه تلك الأيام السابقة.

ارتدى ملابسه الاعتيادية، وصفَّف شعره بعد أن أضاف قليلًا من كريم الشعر الخاص به. حاولَ جاهدًا أن يتناسى ما مضى، ولكنك عندما تريد أن تنسى، تلتصق بك ذكريات الماضي التي لا تحب تفاصيله أبدًا، فلا هروبَ ولا نسيان حينها، ولكنك إن أردت ألا تنسى فستنسى بالطبع، كلُّ شيء يتعلق بما أردت تذكرّه يطير مع الرياح ليسابق الطير التائهة.. لا أحد ينالُ ما يريد.

أسقط كلتي قدميه بين جلد حذائه الأسود، ثم استلقى على السرير صامتًا وهو ينظر للسقف مبعثرَ التفكير لدقائق.

قام جاهدًا ليجلس على السرير بهدوء خارجي وفوضى داخلية، سمع رنين هاتفه منخفضًا وهزته تسري تحت وسادته، انسلت يده تحتها وأمسك به، ثم فرك عينيه ليرى اسم المتصل، وكان أنس.

- صباح الفل.

قالها أنس متفائلًا، فلم يرد عليه سعد وكأنه لم يسمعه، ثم قال:

- إيه يا بني، في حاجة؟!

- فيه يا باشا، كلمت واحدة صاحبتي عن موضوعك، وقالتلي فكرة مش بطالة، ويمكن تفيدك.

- الله يخربيتك، انت مابتكتّمش على حاجة أبدًا يا أخي؟!

- معلش بقا، دي تبعي يعني، ماتخفش.

قالها ضاحكًا، فنطق سعد بنفاد صبر:

- وإيه هي بقا الفكرة اللي هتفيدني دي بقا يا سي السيد؟!

رَدَّ عليه أنس بغموض وهو يبتسم:

- هنروح عند مشعوذ في مصر القديمة.

- نعمممم! صدقني ندمان إني عرفتك يابن الهبلة!

قالها وهو يضرب قدمه بيده اليمنى في ضيق، فتابَعَ أنس:

- اسمع مني بس، مش هتخسر حاجة صدقني.

سكت ليكمل:

- وأنا هدفع الحجز يا عم ولا يهمك.

- حجز! هو مصر للطيران؟ يا عم أبوس إيديك ارحمني أنا مصدّع!

- الراجل ده بيشيل الصداع على فكرة.

- يا أديان الدنيا! ليه؟! بانادول يا خويا؟!

- مش بهزر والله، تعالى بس انت معايا ومش خسران.

صمت لثانيةٍ ثم أكمل:

- وغلاوتي عندك!

صمت سعد لثوانٍ وهو يسب هامسًا صديقه الذي يظنُّ أنه جُنّ، ثم نَطَقَ:

- مش هنعمل حاجة حرام أهم حاجة؟!

رَدَّ عليه أنس بغموض بعد صمت:

- لا لا طبعًا، يا دوب نسأل، ونعرف، ونروّح، ماتخفش نهائي.

سكت سعد برهةً، ثم سأل ببرود:

- هنروح إمتى طيب؟

- دلوقتي لو حابب، إيه رأيك؟!

ضاق ذرعًا بالحديث مع أنس، «البغل ده شكله فاضي».

قالها سعد في قرارة نفسه، ثم قال:

- إنت فين؟

- تحت البيت.

قالها أنس مبتسمًا مفاجئًا مضايقًا صديقه، فزفر سعد بضيق وهو يقول:

- صبرني يا رب!

نسي فكرة ذهابه للعمل والعودة للحياة مرة أخرى نسيانًا، وكأنما تشدّه الأحداث عنوةً وبإرادته في الوقت نفسه، ودّع أمه التي لاحظ شيئًا ما غريبًا بها، لا يدري ما هو لكنه شعر بشيء ما تجاهها، ثم سار في النهاية حتى باب الشقة وأغلقه وراءه ليهبط لصديقه أنس الذي كما يبدو قد عادت فيه أيام الماضي مرةً أخرى.

***

كانت الڤيلا من الداخل كمتحف أثري. الرخام النمريّ الأسود والأبيض كان يُغطي مُعظم أرضية الڤيلا التي حملت الكثير من التحف الفنية عتيقة الطراز، تنوَّعت ألوان الحوائط من الداخل بين البني الخافت والغامق بينما هناك جزء بسيط يحمل على أرضيته جهاز البيانو الأسود اللامع، كانت حوائطه جميعها ذات لونٍ رصاصي قاتم، ومُعلقة به مصابيح صفراء للزينة تُضفي عليها نكهة جمال جذابة.

داخل الصالة الفسيحة كانت الأرائك الكبيرة مليئة بالضيوف المدعوين مُبعثرة في الأرجاء، كلٌّ مع من يعرفه يتحدث في مجاله، فمنهم من يتكلم عن الصحافة والإعلام، والبعض الآخر يتكلم عن الأعمال والمشروعات وما تدرُّه على صاحبها من عوائد وأموال، ومنهم من كان واقفًا يتعرف إلى شخصية ما ويصافحها ثم يتبادلان أرقام الهواتف، وبين كل هذه الأمور

المزدحمة كان حاتم ببدلته السوداء اللامعة ومشيته الواثقة بحذائه الأسود يرافق تالا ذات الفستان السماوي الجذاب إلى الداخل.

عندما دخلوا إلى المكان فوجئا بالأعداد الكبيرة داخل المكان، ولم يلبث دقيقة إلا وقد أتاهم وبسرعة خادمٌ يحمل لوحًا عليه بعض الشراب، فرفضا بتهذيب.

هَمَسَ حاتم في أذن تالا وهما يسيران:

- باباكي شكله مسيطر.

ابتسمت له تالا مُظهرة أسنانًا بيضاء ناصعة ولم تُعقِّب، وبعد ثوانٍ قليلة أخذته من يده وهي تسرع من مشيها وهي تقول:

- يلا عشان تشوف بابي وأعرفكم على بعض.

أخذ بكلامها وصعد معها إلى الشُّرفة الخلفية الواسعة عبر سُلمٍ حلزوني يلتفُّ من داخل الفيلا.

عندما وصلا إلى الشرفة الخلفية استقبل الاثنان نسماتٍ الهواء الباردة على وجهيهما وهما مغلقا الأعين ويبتسمان.

بدأت تالا في تحية الضيوف الموجودين في المكان، فالكل يعرفها، وهي مشهورة مثل أبيها، ومعها حاتم أيضًا.. أنهى الاثنان تحية معظم الموجودين،

ولمحا رجل الأعمال جلال العاشوري – والد تالا – فتقدما نحوه ببطء وثقة..

وقتما اقترب الاثنان إليه كان موجودًا مع شخصين يبدو من مظهرهما الشأن العظيم.. لمح والد تالا حاتم وتالا قادمين، فاعتذر للشخصين وهو يقول:

– لا مؤاخذة يا حضرات.. بعد إذنكم.

فردا عليه بحفاوة وتعثُّر:

– اتفضل معاليك، اتفضل.

قابلهما جلال العاشوري بحفاوة وترحاب وابتسامة حقيقية واسعة، احتضن ابنته وقبلّها وهو يمدح في فستانها الأنيق، ومن ثم صافَحَ حاتم بابتسامة واسعة.

– ده حاتم يا بابي اللي حكيت لك عنه.

عاجلها قائلًا لحاتم:

– أهلًا أهلًا أستاذ حاتم، نورت الحفلة بوجودك.

حاتم بتعثُّر:

– ربنا يخلي سعادتك يشرفني جدًّا إني أبقا من ضمن المدعوين.

أضاف والد تالا بحكمة:

– حابب أشكرك تاني على تصرفك الشهم.. انت راجل محترم.

حاتم بثقة وهو ينحني انحناءة بسيطة للأمام تدل على التوقير:

- حضرتك ده واجب عليا.. تالا زي أختي.

ضحك والد تالا - جلال العاشوري - بفرحة بدت مصطنعة وهو يمسك بكتف حاتم، وكأنه ابن له، وبالطبع كانت البسمة مُبعثرة على وجهي حاتم وتالا، ثم قال:

- ربنا يخليكم لبعض.. يلا استأذنكم أنا أسلم على باقي الضيوف.. استمتعوا بالحفلة.

أنهاها جلال بنظرة غريبة صامتة نحو حاتم، فردَّ عليه حاتم وهما يهزُّان رأسيهما بأن تفضَّل.. ودّعاه ليتركهما ليكمل تحيته لباقي الحضور الذي زاد توافُده مع الوقت.

هنا عاجَلَ حاتم تالا بنبرة غامضة:

- باباكي ده عسل.

ضحكت تالا وهي تقول:

- إنت اللي عسل يا حاتوم.

- إنتي كده بتعاكسيني؟!

- أه عايز حاجة؟!

- لا لا سلامتِك.

ضحك الاثنان وهما يُغمضان أعينهما.. ووقتما كانا يضحكان لمح حاتم فجأةً الخادمَ النشيط – الذي وضع بعضًا من الظن ناحيته– على بداية السلم وهو يرفع هاتفًا ما بيده ليريه لحاتم فهُيِّئ إلى حاتم أن صورته تُعرض على الهاتف، وهنا تحوَّل الشكُّ إلى يقين، صُدم حاتم ولم يعرف ماذا يفعل، فقد كانت تالا تتحدث إليه، وكان هو في عالم آخر، فركض الخادم.. و..

– بقولك إيه.. هنزل أشوف حاجه كده وهاجي بسرعة.

قالها بتعجُّل وبنبرةٍ تُثير الشكَّ، ثم تركها، ولم يلقِ لما قالته بعد ذلك بالًا، وذهب مسرعًا كي يستطيع اللحاق بهذا الخادم الذي اتَّضح أنه ليس بخادم على الإطلاق.

***

ركض مسرعًا نحو السُّلم وهبطه بشكل سريع، وعندما وصل إلى نهايته رأى الحضور الغفيرة فهدأ كيلا يثير الانتباه، ثم جعل يلوح ببصره في جميع الأنحاء بحثًا عن ذلك الرجل الهارب، ولكنه لم يجده.. فوسّع بين خطواته تجاه الباب العظيم للمبنى.

هَبَطَ السُّلم القصير حتى صارت قدماه على أرضية الفيلا الواسعة، ثم طَفِقَ يُحرِّك عينيه الثاقبتين يمينًا ويسارًا وفي كل مكان أملًا في إيجاد ذلك

المتعجرف الذي أفسد عليه حفلته، ومما يبدو سيفسد عليه حياته أيضًا.. ولكن لا وجود له الآن.. طار مع نسمات الهواء إلى العدم.. جُنّ جنون حاتم وبدا متخبطًا لا يعلم ماذا يفعل، فقد أكّد له هذا المعتوه صِدْقَ الرسالة التي أُرسلت له.

عندما لاحظ توتره خشي أن يلحظه الناس، فهدأ جسمه وخمدت أجزاؤه، لكنه من الداخل بات مشتعلًا.. أخرج صندوق السجائر المعدني الفخم من جيب بدلته والتقط واحدة منها ثم أشعلها ببطء بواسطة قداحته الثمينة، وبدأ يرسم سُحبًا دخانية كثيفة وهو ينظر للنجوم في السماء، بينما هو في عالمه الخاص، ظهرت تالا فجأة وهي تلهث ومما يبدو أنها أتتْ مُتعجلةً راكضةً، و...

- إيه يا حاتم رحت فين؟!

رَدَّ عليها حاتم ببرود وهو ينفث الدخان:

- مروحتش، أنا قدامك أهو.

نظرت له بنظرة شَكٍّ، ثم صمتت قليلًا لتقول:

- في حاجة ولا إيه؟!

حاتم بثقل لسان:

- باين كده.

***

وصلا لمصر القديمة بعدما ذاقا التعب أطنانًا، ومن ثم سارا في أعماقها داخل حارات يحتضنها الظلام وفقط رغم النهار، وفي كل خطوة يخطوانها كان صدر سعد يعلو ويهبط خوفًا، أما أنس فكان يكتم ضحكته في كل مرة ينظر فيها إلى صديقه.

استمر أنس ويتبعه سعد في السير داخل طُرقٍ مظلمة ضيقة حسبما وصفت له صديقته المكان، وكان يسأل بعض الناس في كل مفرق عن المكان هامسًا فيخبره البعض وينفر منه البعض الآخر متضايقًا، حتى وصل في النهاية أمام شيء يُشبه البيت.

كعش طائرٍ خَرِب كان ذلك البيت الصغير قابعًا في آخر ممرٍ ضيق لا يوجد فيه سوى هذا البيت، لَمَحُهما رجلٌ عجوز يجلس بالخارج فنظر إليهما بترقُّب وهما يسيران ببطء، فحتى أنس الذي كان يملك نفسه أصبح مرتعدًا كصديقه سعد.

- على فين؟!

قالها العجوز بصوت خشن وكأنه صوت احتكاك سيارة على مضمار سباق، فصمت كل من سعد وأنس، ثم نطق أنس بحذر:

- جايين للشيخ خلدون الغازي يا عم الحاج.

نظر لهم نظرة متفحصة، ثم نطق بغموض بعد ثوانٍ:

- خشوّا جوّا من غير صوت.

صمت فأكمل:

- على إيدك الشمال بعد الطُّرقة.

اكتفى الاثنان (سعد وأنس) بهزِّ رأسيهما بالإيجاب، ثم دلفا للداخل ببطء وهما يبتعدان عن نظر العجوز الذي لا يُظهر من غطاء رأسه سوى عينٍ واحدة تطوف حولها التجاعيد.

سارا ببطء نحو الداخل تصاحبهما رائحةُ بخور تُضايق الأنفاس وتكتمها، جعلا ينظران في كل تفصيلة لذلك البيت المُوحِش حتى وصلا إلى الغرفة التي أخبرهما بها العجوز، حاول سعد طَرْقَ الباب لكن أنس مَنَعَه ودفع الباب ببطء ليرى اثنتين من النساء، غضب وجهاهما واخترق السواد أعينهما، بدت المرأتان كممثلاتي رعبٍ لفيلمٍ تركيٍ يجب أن يُصنف كفيلم رعب، لكن المرأتين فيه أكثر رعبًا من الفيلم ذاته.

نظرت كلتا المرأتين تجاه أنس وسعد، لكن لم يبدُ عليهما الاهتمام، أخذا نفسيهما ببطء وجلسا مقابل المرأتين على كرسيين قديمين غير راسخين في مكانيهما، بدا على ارتجاف أقدام سعد وأنس أنهما ندما على القدوم حتمًا.

***

دخلت امرأة شابة بدت كدمية من شدة مستحضرات التجميل التي غزت وجهها، ونادت على المرأتين باسميهما وأخذتهما بعدما نظرت إلى سعد وأنس

وأغلقت الباب وراءها، انتظرا نصف ساعة وهما ينظران تارةً للسقف وتارةً لأرجلهما، انتهت المرأتان من حاجتهما ثم غادرتا، وهنا أتى دور الصديقين.

أخذتهما المرأة وراءها، ثم دلفت غرفةً بدا على بابها أنه باب قبر، بعدما أشارت لسعد وأنس بأن ينتظرا، دقيقة واحدة وخرجت المرأة لتشير إليهما بالدخول.

بدأ سعد يتصبَّب عرقًا وقدماه ترتجفان، وأنس أخذ العدوى منه هو الآخر، سارا ببطء نحو الداخل وأغلقا الباب، وهنا همّ أنس بأن يُلقي السلام، ولكن أمسك سعد بيديه وهو يهمس بعصبية تجاهه:

– بتعمل إيه يا اهبل، ده مشعوذ، يعني كافر يا غبي!

نَظَرَ له أنس بتفكُّر، ثم تيقَّن من الأمر، وتوجَّه الاثنان ببطء نحو كرسي قرب ذلك المشعوذ الذي يسمي نفسه بالشيخ خلدون الغازي.

حيَّاه الاثنان بصوت واحد خفيض فلم يرد عليهما، واكتفى بإشعال بخوره لتنتشر في أرجاء الغرفة، لوهلةٍ، صمتَ الرجل العجوز المشعوذ الذي يجلس متربعًا على كرسي بملابس غريبة ووجه متجعد متخشب لا يملك أي تعابير، بدا مخيفًا من وراء الدخان، هنا أشار إلى سعد وهو ينطق بصوت أجشّ غامض تتعشش به العناكب والخنافس:

– أكيد انت سعد.

أصبح فما سعد وأنس ككهفين في جبل، أكلهما الاندهاش، نظرا لبعضهما البعض، ثم أومأ سعد له بالإيجاب ولم يقدر على النطق، فتابع المشعوذ:

- وإنت أنس.

قالها وهو يشير لأنس، ثم تابع متجاهلًا ردة فعليهما:

- قول يا سعد إيه مشكلتك.

لم يقدر على تحريك لسانه ولا على تحريك ملامح وجهه المندهشة، فرمى المشعوذ شيئًا في مبخرته فتصاعد الدخان كانفجار مدوٍّ في الأرجاء، فكرر:

- انطق يا بني، إيه مشكلتك؟

ابتلع سعد ريقه وبدأ يملك نفسه قليلًا، ثم شرع في قَصِّ كل ما حدث له باختصار شديد.

***

استمرَّ حسن في الكتابة لمدة أسبوعٍ كامل، لا يعلم أحدٌ لِمَ يفعل هذا في نفسه، يأكل طعامه ليلًا فقط، صار يتكلم أيضًا بالقليل وقد طلب رزمة أوراق! في كل يوم تقريبًا كان يدخل إليه الطبيب عمر ليرى أموره، يرى حسن يرفع له يده اليسرى - وهو يكتب باليمنى - بأن لا، دعني وحيدًا.. ربما قد تغيَّر حاله قليلًا.

توقّع الطبيب منه جيدًا في نهاية الأمر، فهو لم يرَ حسن جادًّا هكذا من قبل، كان ينام أربع ساعات متقطعة في اليوم فقط، طلب منه الطبيب أن يكتب شيئًا عن الصور لا أن يكتب أشياء، ومن ثم لم يستطع الطبيب أن يتوقّع ماذا يكتب حسن الآن.

***

نظر له المشعوذ بغرابة وكأنه لم يستطع تصديق ما قال، ثم سأل:

- أبوك ميّت؟!

اندهش سعد من سؤاله، ثم جاوب مترددًا:

- أه متوفي، عرفت إزاي وبتسأل ليه؟!

تابع العجوز دون أن يُعير اهتمامًا لسؤاله:

- مات إزاي؟

بتوجُّس نَطَقَ سعد:

- مش عارف، أمي ماقلتليش حاجة عنه الله يرحمه.

أخذ المشعوذ يفكر وينظر في زاوية معينة من الغرفة، ثم أغمض عينيه وجعل يهمس بكلمات غريبة لثوانٍ قليلة، ثم قال:

- أبوك مات صغير، ناقص عمر.

سأل سعد متعجبًا:

- عرفت إزاي؟! وأصلًا محدش بيموت ناقص عمر!

لم يرد العجوز عليه بل تابَعَ:

- كل اللي حصل مش صدفة.

سكت قليلًا ثم أكمل بغموض وهو يضغط على الحروف:

- الوهبة اللي نولتها في منامك، وكل شيء عرفته مش صدفة، إنت حد اختارك فعلًا عشان تعمل حاجة معينة هو نفسه مش قادر يعملها، كل اللي بيحصل ليه لازمة يابني، أنا أول مرة حد يجيلي ويبقى في خير.

- صَمَتَ ليتابع:

- إنت هتبقى سبب من الأسباب.

غَرِقَ سعد وأنس في صمتٍ مهيب، ثم سأل الاثنان بصوت واحد:

- يعني إيه؟!

هدأ الرجل وأغمض عينيه، ثم زَفَرَ وهو يفتح عينيه ويقول:

- امشي مع خيولك، وسيب مهرك على جنب.

سكت قليلًا ليُتابِع:

- صاحب جوّاك، واعصي الجميع، إلّاه.

وأشار لهما بأن يخرجا وهو يشير لسعد نحو قلبه.

الصورة التاسعة

غادرا المكان سريعًا دون أن يحركا شفاهما، لم ينوِ أحدٌ منهما الكلام للآخر، ركبا المواصلات عودةً للمنزل، ولم يتكلم منهما أحد طوال الطريق، لكن أدمغتهم كانت تزمجر تفكيرًا، عندما وصلا، ودّعا بعضهما البعض بفتور ثم عاد كل منهما لمنزله، صَعَدَ سعد السُّلم، ودلف منزله بهدوء، ثم حيًّا أمه الهادئة، وأكلا الغداء معًا، وفي النهاية رمى سعدٌ جسدَه على السرير منهكًا من تعب النفس والجسد، وفي النهاية نام نومًا عميقًا.

***

استيقظ باكرًا وأحس بنشاط غريب، لم يحلم بشيء الليلة! ارتاح قلبه لذلك كثيرًا، وشعر أنه نام حقًّا، وظن أن كل هذه الشرور قد ذهبت مع الرياح، ولن تعود مرة أخرى، لا يعلم قط لِمَ ظنَّ خيرًا.

أكل طعام الإفطار مع أمه سريعًا، ثم ارتدى ملابسه وقد قرَّر الذهاب – دون أن يغير قراره كما في المرة السابقة – للعمل أخيرًا بعد طول غياب.

ارتدى ثيابه نشيطًا، ثم هَمَّ بالذهاب بعدما ودّع أمه توديعًا سريعًا بالرغم من أنه لمح شيئًا ما بها كما المرة السابقة، اعتزم أن يسألها عن أحوالها بعدما يعود من العمل لأنه كان متأخرًا وقتها.

سار بخطوات ثابتة قليلًا تجاه الدنيا والحياة مرة أخرى متجاهلًا كل ما حدث.

***

في منزله الأنيق والهادئ كان حاتم جالسًا على أريكته بملابس الليلة السابقة، ولكنّ حالته أصبحت رثَّة.

ممسكًا بزجاجة الفودكا كان حاتم يتجرعها، وممَّا يبدو أنه لم يَرَ النوم منذ البارحة.. قلّب نظره في المكان ورأى أنه أعطى الأمر أكثر من حقِّه بكثير، ولكن ماذا أفعل؟! أفي أوّل مرة أعود فيها لهذا المجال يحدث هذا؟!

انتفض من فوق الأريكة وهو يفكر: ماذا يفعل؟ ولكن سرعان ما أتاه الوحي مُذكرًا بمهمته المطلوبة.. سيتصل على الرجل المجهول هذا فمن الممكن أن يساعده في أي شيء.

التقط الهاتف من فوق الكومود وألقى بزجاجة الفودكا داخل صندوق قمامة صغير.. ولكنه تذكَّر أن ذلك الرجل المجهول اتصل عليه من رقم محظور.. ماذا يفعل الآن يا تُرى؟! أمال رأسه للأسفل بيأس، ولكن سرعان ما رفعها لأعلى وانطلق نحو غرفته الخاصة بالعمل..

غرفة واسعة، بها صناديق سوداء منتشرة على حائط رصاصي اللون ومما يبدو أنها تحمل كل أنواع المُعدَّات التي يستخدمها في مهماته من أسلحة وذخائر..كان داخل تلك الغرفة القاتمة مكتب بني ذو لمعة جذابة في الزاوية الأمامية عند الدخول من الغرفة وعليه شاشة عريضة ضخمة، وبالقرب منها حاسوب محمول وفوق ذلك المكتب كانت هناك بندقية (PPS-43) – سلاح المظليين الروس في الحرب العالمية الثانية تُسميه بلاد الشام شمايزر – عتيقة سوداء ذات لمعة مخيفة مُعلقة بالجدار كلوحة فنية ذات عمر سحيق.

دخل حاتم سريعًا إلى الغرفة متجهًا إلى مكتبه الكبير، وعندما وصل إليه جلس على الكرسي المتحرك ثم فتح أدراجه الثلاثة بحثًا عن الظرف التي يحمل الصورة والورقة التي أعطاها إياه الرجل المجهول التي تحتوي على المعلومات عن ذلك الهدف، وبعد ثوانٍ قليلة وجدها.

فَضَّ الظرف ليرى ما به، فوجد مُراده.. قلب الورقة التي تحمل المعلومات عن الهدف، ولكنه لم يجد أي وسيلة للتواصل مع ذلك الرجل.. وضع الورقة جانبًا وأمسك بالصورة.. تمعَّن فيها قليلًا ولم يجد شيئًا، فرمى بها على المكتب وأراح ظهره للوراء ثم نظر للسقف، وغاص في التفكير، ولكنه لم يستمر عدة ثوانٍ بل انتفض فجأة وأمسك بالصورة وتمعنها جيدًا ثم قلَّبها ليرى ظهرها، ثم ابتسم.

وجد شيئًا ما.. وجد رقمًا مكونًا من عشرة أرقام فقط، وبجانب ذلك الرقم ختم هُيِّئ إليه أنه ثعبان يكشف عن أنيابه، لم يُعر حاتم لهذا الختم أي انتباه. فقط قام من على كرسيه واتجه نحو الصالة وجلس على الأريكة، ثم أمسك بالهاتف من فوق الكومود، واتصل بالرقم.

دقيقة مرت على اتصاله ولكن لا رد.

يَئِسَ حاتم من الأمر برُمته فقذف هاتفه بالقرب منه على الأريكة، ووقتما هبط الهاتف رنّ الهاتف فجأة لتظهر كلمة (Unknown).. أوّل مرة يشعر حاتم فيها بالراحة والاستقرار والأمان عندما تظهر هذه الكلمة، ردّ حاتم على الاتصال سريعًا هذه المرة، و...

- حاتم بيه..

حاتم بثقة:

- أهلًا وسهلًا.

أضاف الرجل العجوز المجهول:

- في هدف تاني مطلوب تصفيته.

- مفيش مشكلة يا فندم.

- بس أنا عايزة مكان الهدف الأخير.

- والمعلومات؟!

- هتوصلك لغاية البيت.. واحرق المعلومات القديمة.

حاتم بثبات:

- تمام يا فندم.

- والهدية هتبقى ضعف الضعف المرة دي.

صمت حاتم قليلًا، ثم رد بتعجب:

- ليه؟! مين الهدف؟!

المجهول وقد ظهرت الابتسامة على حروفه:

- هتعرف قريب.

وانتهت المكالمة.. فقال حاتم في نفسه: (ولكن من هذا الهدف الذي سيأخذ مقابل مقتله أربعة ملايين في حقيبة واحدة؟! من؟!)

يا لغبائي! لم أخبره عن ذلك الرجل الذي التقط لي صورة، تبًّا لذلك! يبدو أنني سأتصرف حيال ذلك الأمر بنفسي.

قالها حاتم في نفسه وقد تذكر قول: «خوسيه ساراماغو» الروائي البرتغالي عندما قال: «إن أردت أن تحظى بخدمة ممتازة فاخدم نفسك بنفسك». ولكن هل سيستطيع فعلًا؟!

ولماذا قالها صريحةً: إن هناك هدفًا ما مطلوبًا تصفيته؟!

***

بعد يوم طويل من العمل الشاق وتوبيخ رؤساء العمل لسعد بسبب غيابه المتكرر عن الشركة، أنهى عمله واتجه نحو البيت وهو مُحاطٌ بالهواجس في كل مكان، وقد أذابت ما تبقى من أنسجة عقله المملوءة بالأسئلة.

لماذا يحدث لي كل هذا؟! ولِمَ أنا بالذات؟! وما هذا الوشم الذي طُمس على كتفي في يوم وليلة، ولا أعرف من أين أتى؟! دعك من كل هذا. ماذا تعني تلك العجوز عندما قالت على ما أتذكر قبل أن ترميني بعصاها: (عندما يزأر وقت غروب.. سترى القاتل المغضوب)؟ لا بد من وجود نهاية لهذا الأمر.

«اعصِ الجميع إلّاه»، تذكر سعد تلك الجملة التي قالها ذلك الرجل المشعوذ، مع أنه يظنُّ أن المشعوذين لا يأتون بخير، إلا أنه رأى أن ذلك المشعوذ على حق فيما يقول.

يجب أن أتبع ما يقوله خاطري. بدأ يفعل ذلك، فجعل يفكر فيما قالت تلك العجوز، وبدا له أن ما قالته لغزٌ ويجب حله.. ومما يبدو أنه فهم أن هذا اللغز هو مكانٌ سيرى فيه القاتل المغضوب كما قالت، وأظنُّ أن من تتحدث عنه هو قاتل رجل الأعمال الكبير المدعو بـ «سليمان منصور».. وبالفعل كانت تقصد ذلك.

ما المكان الذي سأسمع فيه صوت زئير في وقت غروب الشمس؟! قالها في عقله ولكن سرعان ما أجاب: حديقة الحيوان بالتأكيد، فلا وجود

لأسود أو نمور أو أي شيء من تلك الفصيلة التي تزأر إلا في تلك الحديقة، ولكن! أليست حديقة الحيوان تُغلق أبوابها في الثانية ظهرًا على ما أظنُّ؟! إذًا سأستبعد هذا المكان.

بحق الله ما هذا المكان التي تَصِفُه تلك المرأة الغريبة؟!

ليس هناك أسود تزأر في الشارع مثلًا، ربما تريدني أن أطبق قانون السببية، بمعنى أن صوت الزئير من أين يأتي؟! بالتأكيد من الأسد أو اللبؤة أو النمر.. ولكن يبدو أنها تقصد الأسد، لا أعلم لماذا، هناك حدس يقول لي ذلك وحسب، إذن استبعدنا اللبؤة والنمر، وتبقَّى لنا الأسد.

مهلًا مهلًا، لقد قلتُ شيئًا غريبًا: ليس هناك أسود تزأر في الشارع!

أسود، شارع، غروب، يا لغبائي! لقد قلت شيئًا مهمًّا، ولكني لم أنتبه له ألبتة.. يبدو أنني وجدتُ المكان وهو على ما أظنُّ...

«كوبري قصر النيل». قالها بصوت عالٍ فانتبه له من في الميكروباص بنظرات غائمة كئيبة، ولكن سرعان ما انتبه لهم، فنكَّس رأسه لأسفل، وجعل يعيد التفكير مرة بعد الأخرى ويبدو أن عقله قد تمسك بالفكرة وأيّدها.. بالتأكيد هو كوبري قصر النيل.

***

في المساء، داخل بار شامبيين الذي يطل على الكورنيش المكتظ بالسكارى والمريدين، كان هذا مقصد حاتم المفضل على كورنيش النيل، كان حاتم جالسًا على كرسيه المعتاد بالقرب من البارمان يتجرع كأسه الثالثة من مشروبه المفضل الذي يعرفه البارمان جيدًا، معظم الجالسين والعاملين بالمكان يعرفون حاتم ويعرفون مقامه جيدًا.. لاحظ البارمان الذي يُدعى « سيد » – ولكنّ الناس يدعونه بـ«زيكو» بالرغم من عمره الكبير الذي تعدى الخمسين – أساريرَ الريبة والتيه على وجه حاتم، فعاجَلَه بعد تردُّد لأنه كان يعرفه جيداً:

– مالك يا حاتم بيه.. في حد مزعلك ولا حاجه يا بني؟!

رَدَّ بعد فترة من الصمت:

– لا مفيش حاجة يا زيكو.. سيبني بس براحتي.

رفع البارمان العجوز زيكو حاجبيه، وهو يقول مبتعدًا:

– براحتك يا حاتم بيه.

غرق حاتم في صمته المريب وهو خافض رأسه لأسفل قدميه وممسكًا كأسه الطويلة، وما لبث ثواني إلا وانتفض فجأة ليرفع رأسه ويوجّه حديثه إلى زيكو قائلًا:

- بقولك إيه يا زيكو! عايزك في مصلحة!

أنهاها وهو يشير له بأن تعالَ، وعندما اقترب منه، جعل حاتم يهمس في أذن زيكو بكلمات لا يسمعها سواهما، حاتم يتكلم وزيكو يصغي ويومئ برأسه بالإيجاب في كل مرة.. ثم يبتسم في النهاية.

***

الساعة الثامنة مساء.

قفز سعد من العربة الضخمة -كالعادة عندما تكون مسرعة فالسائق لا يأبه، فالأهم عنده الوقت والمال - وقتما وصل إلى شارعه المنشود في حي فيصل بعدما أنهى عمله المتكدس، ففي هذا اليوم قام بعمل عدة أيام ليعوض غيابه. عاد متأخرًا هذه المرة وقد أنهكه اليوم، لم يلتفت يمنة أو يسرة بل انطلق باستقامة متوجهًا إلى منزله وهو يمسك بجريدة اشتراها وهو قادم من العمل ليقرأ أي شيء عوضًا عن الملل الذي يعتريه.

اتجه مسرعًا إلى البيت، فأمه بالتأكيد قد قلقت عليه لهذا التأخير فلم تأكل غداءها بعد، بل انتظرت حتى يأتي فيأكلان معًا.

وهو ما ظنَّه سعد...تقريبًا.

لم يستغرق سعد بضع دقائق إلا وقد وصل إلى حارته الصغيرة، فسمع صوت القرآن يصدح من بعيد بصوت جميل ذي مقامات جذابة، وقد ظنَّ أن

الصوت يأتي من شارعه الصغير، وعندما وصل إلى مدخل شارعه الصغير المُظلم الذي وجده مضاءً على غير العادة فوجئ بالمنظر.. وتيقَّن من اعتقاده تمامًا.

تتراصُّ بعض الكراسي المغطاة بقماش أصفر مزركش على جانبي الشارع الضيق ويتوسطها كرسي متوسط الحجم يجلس عليه شيخ شابٌّ يقرأ القرآن بصوت في غاية الجمال، وكل هذا تلتفُّ من حوله ستائر صفراء مزخرفة بنفس تصميم الكراسي الصغيرة.. هل عرفت ما هذا؟! بالتأكيد هو عزاء، ولكن عزاء من؟! هول الموقف لم يمنع سعد من السير والتقدُّم فاغرًا فاه، فقد أعطاه عقله تفسيرًا بسيطًا ومريحًا وهو أن هناك من مات، ولن تكون أمه بالتأكيد.. لن تكون هي.

لكنه صُدم عندما رأى النسوة بعباءاتهنَّ وأوشحتهنَّ السوداء القاتمة يدخلن ويخرجن من البناية التي يقطن بها سعد، تلك البناية القديمة وبالرغم من وجود الكثير من الناس بالجوار فقد كانت موحشة كقبر عفا عليه الزمن.

لم يستمر في السير كثيرًا وهو في مدخل العزاء إلا وقد ظهر فجأةً رجل ذو طول فارع وشعر أبيض دلَّ على سنه الكبيرة وهيبة من مظهره، كان ذلك جارًا لسعد في منزل يجاور عمارة سعد القديمة.. أمسك الرجل بيد سعد بقوة مصافحًا إياه وهو يقول:

- البقاء لله يا أستاذ سعد.

أنهاها الرجل بنبرة حزينة صادقة وعندها لم يسمع سعد أي شيء سوى تلك الآية الكريمة التي رنّت في أذنيه بصوت أخّاذ ذي مقامات عدة.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

آل عمران الآية « ١٨٥ »

لم يصدق ما تسمعه أذناه، أمي تركتها في المنزل قبل ذهابي للعمل وكانت متوردة تبتسم لي وهي تضع الطعام في فمي محبةً وحنانًا، بعيدًا عن شكوكي التي لم أعبأ بها عند خروجي للعمل، أذهبتِ بهذه السرعة دون أن أراكِ؟! لم أُودِّعها وأُقبِّل يديها حتى.. لم أفعل أي شيء لها..لم أفعل أي شيء.

ترك سعدٌ الرجلَ ولم يرد عليه وصار يترنح وهو يمشي نحو أقرب كرسي له، ثم جلس، قذف رأسه بين يديه لأسفل وانسابت الدموع تجري على وجنتيه كالأنهار، دموع صامتة، روحه تجهش بالبكاء دون مرأى عن البشر.. كلُّ ما لديه ذهب لخالقه.. أمه هي ما تبقَّت له وكل ما له وعليه.. والآن قد ذهبت إلى ربها لتتركه وحيدًا يلاعب ظلام بيته القاتل..

وحيدًا كعادته. وهو غارق في دموعه وقت أن كان جالسًا على الكرسي، شعر بيدٍ تُربت على كتفه المضطربة، فهدأ فجأة دون أن يعرف السبب، ثم مسح قطرات الدموع المنسابة على وجنتيه بعد أن تركت خطَّين أسودين تحت

عينيه في وقت قياسي، فرفع رأسه بهدوء ليرى من يكون هذا الشخص الذي هدأ فجأة بسببه، فوجده «أنس» يجلس بالقرب منه وقطيرات الدموع تهرب من عينيه صامتةً.. احتضن أنسٌ سعدًا بقوة وهو يربت على ظهره ويقول في أذنه هامسًا:

- البقاء لله.

تركا بعضهما البعض وجلسا بالقرب من بعضهما البعض، ثم دوَّى صمتهما قليلًا ما عدا صوت القارئ الذي يقرأ القرآن، فقطع أنس حبال الصمت وقال بصوت خفيض هامس:

- خالك جه أول ما عرف وجاب الفرش وعمل كل حاجه ربنا يجزيه الخير، وواحد من زمايلي قاللي فجيت على طول.

سكت قليلًا ثم أضاف:

- البقية في حياتك يا سعد يا أخويه.. كلنا رايحين ليه.. أنا معاك.. ولو عوزت أي حاجة، أنا موجود يا سعد.

سكت أنس ولم يُضِف شيئًا آخر، وبعد صمت قليل كان سعد فيه منكسًا رأسه لأسفل وقد هدأ قليلًا، ولكنه من الداخل كان يقطر حزنًا ووجعًا، رفع رأسه تجاه أنس متسائلًا بصوت منكسر حزين وعينين حمراوين:

- ليه مقولتليش يا أنس؟!

رَدَّ أنس باضطراب وتقطع:

- خالك قال لي لا يحصلك حاجة وانت بعيد عننا مش هنعرف نعملك حاجة.. أما لو محدش قال لك وجيت على هنا وحصلك حاجة بعد الشر نعرف نتصرف ونسندك يا سعد يا أخويه.. معلش آسف لك.. مكنتش عايز أصدمك.

- يعني أنا كده ما اتصدمتش!

أطرق أنس رأسه في الأرض ولم يحرك شفتيه، وتبعه سعد كذلك بنفس الصمت ولم ينطق، آلآن تتذكرنا يا خالي؟! تدفن أمي دون أن أدري؟! تأخذ أمي دون أن أراها لآخر مرة بغير علمي يا خالي؟! لماذا يا خالي؟! لماذا؟!

دُفنت أم سعد بعد صلاة العصر دون معرفة ابنها الوحيد.. والآن هو يكره خاله ويكره أنس الذي أطاع أمره ويكره الدنيا بما فيها.. ليس بيده أي حيلة، سيعيش وحيدًا طوال حياته المملة.. هذا إن عاش أصلًا!

حيًّا سعد القادمين للعزاء، وودع الذاهبين وشكرهم على سعيهم بعد أن أدرك الموقف وقام بعمل واجب العزاء على أكمل وجه.

انتهى العزاء وقد كانت الساعة قاربت على العاشرة مساءً.. جاء رجال بعربة نقل صغيرة وحملوا فرش العزاء عليها ليذهبوا بها، وفي هذا الوقت كان

أنس وسعد وخاله هم الموجودين في المكان، أنهى خال سعد البالغ من العمر الخمسين معاملته مع صاحب الفرش ودفع له ما دفع، ثم توجَّه ناحية سعد ببطء وعلى وجهه مسحة حزن رنانة:

- البقاء لله يا سعد يا بني.

قالها خاله، فنظر له سعد بعين جامدة خالية من أي مشاعر ولم يرد عليه، بل تَرَكَه بعد نظرة لومٍ وعتاب، ثم ذهب تجاه أنس طالبًا منه الذهاب والرجوع لمنزله وشكره على تعبه معه في هذا اليوم العصيب، ثم صعد إلى شقته ليرى زوجة خاله قد نظفت الشقة ورتبتها بعد ذهاب النساء المعزيات، فعزته بدورها، وقبل منها العزاء باقتضاب، ثم ذهبت حيث كان زوجها، فأغلق سعد باب الشقة ثم نظر داخلها نظرةً طويلة، يتذكر فيها متى؟! وأين؟! ولماذا؟! وماذا؟! اتجه للحمام وغسل وجهه بالماء، ثم اتجه ناحية غرفته وأغلق بابها ليرتمي على السرير دون أن يُغير ملابسه أو حتى أن يخلع حذاءه الأسود البالي بعد يومٍ عصيب مجهول المعالم..

ثم ذهب في رحلة إلى عالم آخر.

***

- متنساش، الهدف ممكن يكون مُسلح!

كانت تلك آخر كلمات حاتم في أذن زيكو «البارمان»، فأومأ زيكو رأسه بالإيجاب وذهب سريعًا، وهنا ارتسم على حاتم شبح ابتسامة عريض، لا

بد أن ذلك المعتوه يتعقَّبني ويتجسس عليّ طوال الوقت، غبي لا يعلم ما في انتظاره.

التفَّ «زيكو» حول معظم عمال الكازينو وألقى في آذانهم بعض التعليمات بأسلوب درامي غير لافت للانتباه، ثم توجَّه ببطء إلى رجال الأمن القابعين عليهم ما قاله للآخرين لكن بتعليمات إضافية عن الباقين.. يبدو أن له خبرة في مثل تلك الأمور..

كان حاتم لا يزال جالسًا على ذلك الكرسي الطويل يمسك رابع كأس له من مشروبه المفضل، أنهاه سريعًا ثم عدّل من هندامه وقال في نفسه: لنبدأ اللعبة، ثم قام من فوق الكرسي بعد أن حيَّا زيكو الواقف أمامه بتركيز وغمز له ليعلن عن بدء العمل.

بدا زيكو متأهبًا ومركزًا بصره على جميع الحاضرين وكي يكون غير لافت للانتباه جعل يلعب في هاتفه المحمول ويرفع عينيه كل ثانية ليثقب بنظره الحاد الزبائن الجالسين.

كان صوت موسيقا السوناتا الهادئة يسبح في المكان وقت أن كان حاتم يمشي بخطى ثابتة هادئة ويوزع الابتسامات على العاملين وبعض الزبائن الذين يعرفهم.. عندما اقترب حاتم من البوابة وكانت المسافة بينه وبينها أقل من مترين، لمح زيكو تحركًا مضطربًا بين الواقفين فأعطى الإشارة إلى خادم

يقف بالقرب من حاتم فبلغه بذلك بطريقة درامية هو الآخر، ولكن حاتم ابتسم وأومأ برأسه إيجابًا دون ملاحظة أحد، وعندما اقترب منه ذلك الرجل الذي يمشي وراءه، بالطبع كان زيكو يرى كل ما يجري، فعندما اقترب ذلك الرجل من حاتم اتصل زيكو بهاتف حاتم بإشارة أنه وراءك الآن، ولكن حاتم وضع هاتفه على الوضع الاهتزاز كيلا يجذب انتباه الرجل، وأيضًا ليشعر بالإشارة، وفي لحظة توقف عندها الزمن أدار حاتم ظهره بحركة سلسلة سريعة للرجل من ورائه ونظر له بعينين تشعَّان غضبًا وتهورًا وحينها تصلَّب الرجل في مكانه، وظهرت على أساريره علامات المفاجأة وهمّ بإخراج سلاحه، لكن حاتم لم يترك له هذا الخيار قط، فقد كانت اللكمة القوية التي كالها حاتم لذلك الرجل لكمةً سريعةً قويةً كلكمةٍ بيد «محمد علي كلاي» ، وهنا انقضَّ رجال الأمن الخاص بالكازينو على ذلك الرجل بعد أن أشهروا أسلحتهم وأوقفوه ثم جروه جرًّا بين الموجودين المتناثرين في الأركان، وكل هذا ولم يُعرِهم أي زبون أي انتباه، وكأن شيئًا لم يكن، يبدو أن هذه المشاهد تتكرر كثيرًا في هذا المكان، حملوه بقوة وهم يشدون على عَضُديه نحو الغرفة الفسيحة التي يكمن فيها مخزن الكازينو الذي يحمل بضاعة هذا المكان، ثم توجَّه حاتم وراءهم بعد أن صافح صاحب الكازينو - الذي يعتبر صديقًا هو الآخر لحاتم - بحرارة ومن ثم ودّعه بابتسامة شاكرة، وقد اتفق

معه زيكو في سابق الأمر، وبالطبع لم يرفض الرئيس طلبه، فقد كان زيكو صديقًا غير كونه عاملًا بهذا الكازينو الشهير.

عندما وصل رجال الأمن الذين حملوا بعنف ذلك الرجل الجاسوس - كما ظنَّ حاتم - إلى الغرفة التي بها صاحب الكازينو جاء حاتم من ورائهم وهو يمشي بعصبية ويشدُّ من قبضته اليمنى التي تحمل خاتم الثعبان، أُلقيَ الرجل على الأرض بقوة بعد أن جرَّدوه من سلاحه الناريّ، ثم..

الآن تبدأ المشكلات. مخزن فسيح بمساحة ملعب كرة قدم خماسي يحمل داخل أحشائه المئات من صناديق الخمر العتيق بكل أنواعه، وكل هذا تحت جُنح الظلام، لا وجود للنور داخل هذا الكهف المظلم سوى مصباحين وحيدين فوق بوابة المخزن، ومن تحتهما كرسيان صغيران يجلس على كليهما رجلان من الأمن يحرسان المكان، وقد عرفا بالأمر واستعدا لذلك.

فجأةً بعد انقضاء ثوانٍ قليلة كانت كالأعوام بالنسبة للجاسوس الجاثي على الأرض غير مدرك لما يحدث، انقضَّ حاتم عليه وأمسك ياقةَ قميصه بكلتا يديه الغليظتين، فقد كان يرتدي بدلة رمادية، ثم جذبه إليه بقوة وعصبية شديدتين ورفعه كطفل صغير إليه، ليصرخ حاتم فيه بغضب:

- مين اللي بعتك؟!

لم يرد فأضاف:

- انطق!

ابتسم الرجل ابتسامة مُستفزَّة أشعلت غيظ حاتم وأحرقت دماءه، فلم يلبث حاتم إلا أن قذفه بقوة على الأرض أمامه بغير اكتراث ثم ابتسم ابتسامة غامضة وكأنه عرِف ما ينفع مع ذلك الرجل، ومما يبدو أنه قد عاد إلى كاريزمته الخاصة، الهدوء، الثقة، الصرامة والقوة، سيندم هذا الحقير على عدم استجابته السريعة عندما سألته عن مُرسله، قالها في نفسه ثم نظر خلفه لرجال الأمن ونطق بصرامة:

- اربطوه في الكرسي ده.

وأشار إلى أقرب كرسي له، فأجلسوه على الكرسي بخشونة ثم كبَّلوه به، ومن ثم عادوا إلى أماكنهم ثابتين.

نَطَقَ قائد رجال الأمن بصوت جامد واثق:

- تمام يا باشا.

فأومأ لهم شاكرًا دون أن ينظر لأحد معين، فأذعنوا له وساروا خارجًا ثم أغلقوا الباب وراءهم.

يا لجمال! أنا وأنت بمفردنا داخل هذا المكان الرائع..

لا أحد سينجدك الآن يا صديقي.

***

أغلق هاتفه الخاص بعد عدد كبير من الاتصالات التي تأتيه لتعزيته في أمه، ولم ينم سوى ساعتين وكانتا ساعتين مُـ....

لا فارق، كلٌّ يَعِدُ بشيءٍ ما،

لكن في النهاية يُحكم علينا بشيءٍ آخر دائمًا،

إذن لا فارق.

- إذًا تُوفيت والدتك!

قالتها بتمثيل، وكأنها لا تعرف، وهي تقطف الأزهار الذابلة من شجرة تقف بالقرب منها ومن ثم تلقيها بقلب ميت على الأرض المتشققة في عدم اكتراث.

ألا تكفيها موتتها؟! أتزيدين موتة على موتتها؟! هي حقًّا لا تريد ذلك. فقط اتركيها تسقط من فوق الأغصان لتطوف وتسبح داخل هذا الكون الفسيح بكل حُريتها، أليس من حقِّها العيش بعد الموت هي الأخرى؟! من حق الجميع أن يعيش.

أحيانًا يموت الإنسان وهو حيٌّ يُرزق، وأحيانًا يحيا بين الجميع يُحدثهم، ويُعلمهم، ويجعلهم يبتسمون لذكريات مضت، كل ذلك وهو جثة هامدة تغطيها حبّات التراب من كل الجوانب، لعلك تعرف كيف تحدث الحالتان.

ردَّ عليها في برود تامٍّ:

- نعم، لقد رحلت.

سكت قليلًا ثم سألها:

- لماذا لم تُخبريني بأنها ستموت؟!

قالها وهو يضع يديه في جيبه، فردت بدون النظر إليه:

- لم أشأ أن أحزنك وأجعلك تنتظر موتها.. على الأقل أنت حرٌّ الآن.

«حُرّ»! هَمَسَ بها لنفسه وهو يبتسم وينظر للأرض ويلاعب بقدمه أحجارًا صغيرة متناثرة على الأرض الميتة.

صمت قليلًا، ثم قال ببرود:

- ما تعريفكِ للحرية؟!

سألها وهو يبتسم ابتسامة كئيبة، فردت بعد تفكير:

- الحرية أن تقوم بأي شيء في أي وقت وفي أي مكان.

- خطأ!

فاجأها برده وهو ينظر لها بتحدٍّ، فقالت بتساؤل:

- وما هي إذًا؟!

نَظَرَ إلى السماء الهادئة رغم مظهرها الأسود المهيب وهو يقول:

- ليس كل شيء، هناك أشياء شنيعة لا يجب أن تترك فيها زمام الأمور كي تعبر عن حريتك البائسة.. الحرية من وجهة نظري الخاصة هي: أن تربت أمك على رأسك وتبعثر خصلات شعرك بحنان وهي تعطيك نقودًا بمناسبة العيد وتقول لك في عطف: لتفعل بها ما تشاء فهي لك.. الحرية هي

أن يجعلك والدك تختار أي عصير تحبُّه عندما تكون داخل محل للعصائر دون أن يتدخل، فأنت الذي سيشرب وليس هو.

صمت ليكمل:

- الحرية هي أن يمنحك بلدك لسانك لا أن يقطعه! الحرية هي عندما يُخيِّرُنا الله - عز وجل - بين الإيمان به أو البُعد عنه.

صمتَ لثانيةٍ ثم أكمل:

- أتعلمين؟! الحرية في أوّل الأمر وآخره هي أكذوبة.

- أكذوبة؟!

صرخت بها متعجبةً، فضحك ضحكة بدت لها غامضة وشريرة، ثم أكملت متسائلةً:

- كيف تقول: إنها أكذوبة بعد كل تعريفات الحرية تلك؟!

أوضح بغموض وعلى وجهه ابتسامة غير مكتملة:

- لا وجود للحرية مهما يُقَل وقيل، كلنا نرتبط بشيء لا نعلمه، كلنا دُمًى، كلنا مُوجَّهون لا إراديًّا لفعلٍ نريده، ولكنك تجهل أن هناك خيوطًا تحركك وهناك شخصيات أكبر منك حجمًا وهم أيضًا تحركهم خيوط من آخرين أكبر وأعلى، وتسير العجلة بهذه الطريقة كلما تعلو تجد من يتحكم بخيطك، وكلما

يعلو يجد هو الآخر من يسيّره ويتحكم بخيطه، فلكل دمية صانع ومتحكم، والمتحكم بنا وصانعنا هو الله.

ردت بعد ثوانٍ من الصمت:

- أدهشني تفكيرك، منذ متى وأصبحت غامضًا؟!

- شكرًا لك، أنتِ قدوتي.

قالها ثم مال برأسه وهو يحرك يديه كالأمراء الفرنسيين عندما يُرحِّبون بأميراتهم، ثم اعتدل مبتسماً وهو ينظر في عينيها ومما يبدو أنه اعتاد الأمر والمكان وشخصها أيضًا، وحتى أنه صار غامضًا هو الآخر.

قالت في غموض مُتقن وهي تلاعب شعيرات قطِّها الأسود بعد أن جلست على عرشها المخيف:

- هناك معبدان سينفجران غدًا.

- ماذا؟!

صرخ فيها مستفسرًا مستنكرًا وقد ذهبت بسمته للعدم بعدما فاجأته، فأوضحت بعد أن وجهت نظرها نحوه:

- مسجد وكنيسة.

رَدَّ عليها باضطراب:

- و و... لكن لماذا؟!

- أتسأل القاتل حين يقتلك لماذا تقتلني؟!!

صمت لثانيتين، ثم فاجأها بسؤاله:

- أأستطيع إنقاذهما؟!

نظرت له مشدوهة لما قال، ثم أعرضت عنه، وحركت رأسها يمنة ويسرة بمعنى «لا».. فأطرق رأسه لأسفل وهو يمعن النظر في الأرض، ثم عاجَلَها وهي تعرف أنه سيطرق في هذا الموضوع لفضوله الشديد.

- لقد حللت لغزك.

- حقًّا؟

- نعم، ولكنك لم تُعلميني بهيئته وشكله أو بعضِ صفاته حتى؟!

- لا تقلق، ستعرفه حين تراه.

قالتها بصوت كالفحيح يتملكه الغموض، فعاجَلَها:

- ولكن الـ...

قاطعته قبل أن يتكلم موضحةً:

- كالظلمة والنور.. والليل والنهار.

أشاحت بعصاها المريبة ذات اللفة الثعبانية، فانقلب الجو كعادته، ولكن لم يقم سعد بأي حراك وقتها..فقد اعتاد الأمر، لكنها قالت مفاجئةً بخبث وهي ترفع صوتها لتقاوم صوت الرياح المسيطر:

- ما أخبار مشعوذك الوسيم؟!

اندهش سعد ورفع حاجبيه ذهولًا ولكنه لم يقدر على الرّد، حيث اختفى وقُذف مع الرياح، ولم يتبقَّ منه سوى بعض الأشعة الحمراء تدلُّ على وجوده في وقتٍ سابق.

ولكن ماذا سيفعل عندما يجده؟!

أضافت عضوة أخرى بثقة تُدعى «الفتنة»:

– سيدي الرئيس لا أظنُّ أن اغتيال الرجال المهمين في مصر وحده يكفي لإشعال الطائفية والتفكك بين الشعب، نحن نريد إحداث مزيج من كل شيء، لذا أظنُّ أنكم نسيت الشيء الأهم!

عاجَلَها «الظلم» بنفاد صبر:

– وما هو؟!

– الدين!

قالتها «الفتنة» بابتسامة ماكرة، فابتسم «الظلم» بدوره:

- بتحبّ النار؟!

لم يُجبه بل واصل النظر إليه بعين جامدة تحمل القليل القليل من الخوف، ربما لأنه لا يهاب الموت، ولكنه يخاف على أشياء أخرى.. ولكن ومما يبدو أن عينيه ستحملان الكثير الكثير من الخوف قريبًا.

تابع حاتم بثقة وهو يمسك بقداحته الذهبية التي أخرجها من سترته السوداء منذ قليل:

- أنا بحب النار.. وبحب ألعب بيها برضه.

سكت قليلًا ثم أضاف:

- تحب تلعب معايا؟!

لم يُجِبْه، فانطلق حاتم ممسكًا القداحة نحو أصابع يده اليمنى، ثم أشعلها، فطفق الكرسي يضطرب ويتحرك يكاد يقفز من مكانه والرجل بوجهٍ تضرج بالعروق وجعًا وغضبًا، يغلي هو وتصطك أسنانه من الألم وعيناه تشعَّان شررًا من الغضب تجاه حاتم.. استمر حاتم لدقيقة كاملة.. ثم تكلم:

- حلوة اللعبة.. صح؟!

صمت قليلًا، ثم أضاف:

- لما هربت مني عند جلال العاشوري كنت عارف إنك هتبقى بين إيديَ.. وأفعصك..

- قبض يده اليمنى في غلظة أمام عينيه ثم أكمل:

- عارف ليه؟!

صمت لثانية ثم أضاف وأسنانه مقتربة من بعضها البعض:

- عشان انت الفار.. وأنا القط، عمرك شوفت فار بياكل قط؟!.. أكيد لأ.. بص عشان مضيعش وقتي معاك.. هسأل.. وفي كل مرة ماتجاوبش فيها.. هقطع لك صباع.. ها إيه رأيك؟!

صَرَخَ الرجل وقد قاربت عيناه في الهروب من مكانيهما وهو يقول:

- إنت مجنووون؟!!

- آه مجنون.. الجنون حاجة كويسة في الزمن ده.

أنهاها حاتم مبتسمًا، فنظر له الرجل في ترقّب وخوف، فأضاف حاتم وهو يطقطق أصابعه:

- نبدأ.

صمت لبرهة ثم أكمل:

- اسمك إيه؟!

نظر له الرجل وقد رأى حاتم يمسك بزرادية كبيرة ذات سكين حادة في يده اليمنى، فما لبث أن رد وهو يبتلع ريقه:

- مؤمن.

- يا راجل يعني يبقى اسمك مؤمن..وتعمل كده! يا راجل يا مؤمن؟!

صمت كلاهما لثوانٍ ثم أضاف حاتم وقد اختفت الابتسامة من وجهه:

- مين اللي بعتك؟!

تردد الرجل في الرد وهو يحرك نظره بين عيني حاتم وبين يديه التي تحمل الزرادية الحادة، تسرّب سيل من العرق بين طيات جبينه فانهالت بعض القطرات على الأرض لتوحي بالخوف والتوتر الشديدين، أطال في الصمت وهو لا يعرف ماذا يقول، فانطلق حاتم فجأةً مسرعًا تجاه إصبعه البنصر الصغير، ثم أمسك به بقوة، فصرخ الرجل يستنجده:

- هقولك هقولك.. سيبني أرجوك.. سيبني!

ولكنّ صوته أتى متأخرًا، فقد قطع حاتم إصبعه الصغيرة بقوة وسرعة لينفجر الدم من إصبع الرجل المذعور، فطفق يصرخ صراخ النسوة في حملهن ويحرك رأسه في كل الاتجاهات من شدة الألم، أنت من أردتَ ذلك، لتتحمَّل إذًا، قالها حاتم في نفسه وهو يشعل سيجارًا ويضعه بين شفتيه، ثم نطق حاتم بصرامة:

- آخر مرة هسألك السؤال ده: مين.. اللي.. بعتك؟!

أنهاها حاتم بتقطع، فرد الرجل سريعًا في توتر وإعياء والدماء ما زالت تقطر من إصبعه:

- جلال.. جلال العاشوري.

صُعق حاتم واهتزت فرائسه عندما سمع بهذا الاسم، وبدت على وجهه علامات الذهول، لا يُعقل، من؟! جلال العاشوري، هذا آخر اسم جال في خاطري، لديه أعداء كثُر، وأسماء كبيرة أيضًا، ولكن لم يخطر في باله قط أن يكون والد صديقته هو من بعث بذلك الجاسوس، أو أيًّا كان هذا الرجل، لكن لماذا؟! هو لا يعرفني حتى، لا أنكر أن نظرته الغريبة لي عندما صافحته في الحفلة التي دعتني إليها تالا قد أثارت انتباهي قليلًا، ولكن سرعان ما نسيت ذلك على الفور.

طَفِقَ يُفكِّر وهو يطوف ببطء حول ذلك الرجل المدعو بـ «مؤمن» رافعًا رأسه للسقف ينظر له، ويحرك لسانه بأسئلة يسألها لنفسه، وصوت طرقعة حذائه على الأرض هو المسموع في المكان، لماذا يُرسل جلال العاشوري رجلًا يتجسس عليّ؟! بالتأكيد لم يرسله ليطمئن على سلوكيات زوج ابنته المستقبلي، هذا المعتوه يُخفي سِرًّا ما ويجدر بي معرفته، توقف أمام الرجل لثوانٍ مطرقًا رأسه لأسفل ولكنه لم يستمر على هذا الحال كثيرًا حيث هبَّ فجأة ممسكًا الزرادية ذات السكين الحادة ثم أمسك يد الرجل في عصبية،

وقد ذُعر الرجل لفعله، فأرسل حاتم الكلمات بدرامية باردة متقطعة إلى أذن الرجل وهو ينظر إلى عينيه بشرر:

- ليه.. جلال العاشوري بعتك.. ليه؟!

***

أغلق هاتفه بعد عدة اتصالات أتت لتعزيته ولم يُجِبْ على أيٍّ منها، لم ينم سوى ساعتين، وكانتا ساعتين مضرجتين بالأرق، لم يرتب أفكاره داخل غرف عقله المضطرب بعد، حين تموت الأم تموت بدورها خلايا الشعور، ويُقتل معها كل إحساس بالحياة، جاءت جارته بالفطور صباحًا وأخذه منها على مضض وشكرها كثيرًا ولم يلبث ربع ساعة إلا وقد جاء أنس ومعه بعض الحاجيات من الشراب والطعام، صافحه ثم جلس الاثنان على الأريكة الطويلة المواجهة للتلفاز.

- إيه انت رايح رحلة؟!

قالها سعد ممازحًا دون أي تغيُّر في جمود وجهه، فردَّ أنس واجمًا لا يدري أيبتسم أم يظلُّ دون أي تعبير:

- قلت هاجي هلاقيك جعان، رحت جايب حبة حبشتكنات كده ناكلها سوى.

صمت ليُكمل:

- تصدق أنا غلطان يلا.

- اسكت.

أشار له سعد بيديه أن اصمت فصمت، ولكن أنس لاحظ علامة التركيز على وجه سعد بالإضافة إلى مسحة حزن ثقيلة فنظر إلى التلفاز ليرى ما يراه صديقه.

لم يتكلم أحد منهما فترة وجيزة فكلاهما كانت عيناه مثبتتين على المشاهد التي يُذيعها التلفاز.

***

كان الانفجار المدوي داخل كنيسة «مارمرقص الرسول القبطية الأرثوذكسية » الذي أسفر عنه مقتل ستة أشخاص من ضمنهم قس وخمسة مدنيين، تفشّى الذعر في المدنيين في ١١ شارع جوهر شلبي فى محافظة الجيزة، الكنيسة العتيقة التي قد أسسها قداسة البابا كيرلس الخامس سنة ١٨٧٧ ميلادية، لم يصمد الجزء الشمالي منها أمام هذا الانفجار الإرهابي الذي قامت به مجموعة إرهابية مجهولة، وأتتنا معلومات سرية أن منفذي العملية لم يتـ..

***

لم ينتبه الاثنان إلى ما بعد هذا الكلام الذي قالته المذيعة الشقراء ذات الأربعين عامًا - في حين أن مساحيق التجميل أخفت عشرين منها، فنظر الاثنان إلى بعضهما البعض في وجوم وذهول، منذ متى ومصر بها عمليات إرهابية؟! ألم تنتهِ تلك الحقبة منذ مدة طويلة؟!

- الكلام ده بجد؟!

قالها أنس بتساؤل لسعد فأجابه سعد بنفس النبرة:

- لا بيفتروا علينا.

هَمَّ أنس أن يتكلم ولكن سعد أسكته عندما وَضَعَ يده على فمه وأشار له بأن اسمع.

***

نبأ عاجلٌ مفجعٌ أتانا الآن أيضًا.. انفجار آخر فظيع بمسجد «الرفاعي».. لم يفده قِدمه في الوقوف أمام هول ذلك الانفجار الذي أسفر عن موت أحد عشر مدنيًّا من ضمنهم طفلٌ صغيرٌ لم يتعدَّ الخامسة من عمره بعد، وأسفر أيضًا ذلك العمل الإرهابي عن إصابة عشرين آخرين غير انفجار وتهدُّم الواجهة الجنوبية وسقوط مئذنة من المآذن الطوال، هذا المسجد أحد مساجد القاهرة الأثرية الذي شُيّد عام ١٣٢٩ هجرية الموافق لعام ١٩١١ ميلادية،

سُمي بذلك الاسم نسبة إلى (أحمد عز الدين الصياد الرفاعي) أحد أحفاد الإمام «أحمد الرافعي» الذي وُلد بالعراق، مما يبدو أن هناك حملة إرهابية دينية أُشعلت لتوها، فالكنيسة والمسجد من أقدم المعالم وأهمِّها لدى المصريين جميعًا مسلمين ومسيحيين، ويبقى السؤال مجاورًا للأحداث، كل هذا في صالح مَن؟!

إذا لم تكن لديك رغبةٌ في المخاطرة في بعض الأحيان، فعليك أن ترضى بأن تكون شخصًا عاديًا.

لم يقدر سعد على الكلام ومثله أنس، ولكن كان لكلٍّ دوافعه، فأنس مذهول لما يحدث، فالمشاهد التي يراها الآن لا يصدق أنها من مصر، وقد حدثت منذ قليل، أما سعد فقد كانت له دوافعه الخاصة، ولعلك تعرفها جيدًا، أمسك سعد بالريموت وأطفأ التلفاز، ثم نظر كلاهما في عيني بعضهما البعض في وجوم، فنطق أنس بعد لحظات كثيرة من الصمت:

- إيه اللي بيحصل ده؟!

لم يعر سعد أي انتباه لما قاله أنس، فقال سعد بصوت خفيض بعدما اعتدل في جلسته وواجه التلفاز:

- قالت لي ده اللي هيحصل!

عاجله أنس بتساؤل واستنكار وتعجب:

- مين دي اللي قالت لك؟!

صمت لثانيةٍ ثم أضاف:

- ماتقوليش الولية اللي كلمتني عنها؟!

أومأ له سعد رأسه بالإيجاب وهو يقول بدوار:

- هي.

غرق الاثنان في بحر من الصمت لثوانٍ، ثم انتفض سعد فجأة من فوق الأريكة، ودخل غرفته ليرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود التقطهما من دولابه الخاص، ثم اتجه بمحاذاة السرير ليلتقط حذائه البالي ويلقي قدميه بين رمال ذلك الحذاء الأسود، بعد ثوانٍ قليلةٍ خرج لصديقه والتقط هاتفه المحمول من على المنضدة، ثم حدّث أنس بنبرة غامضة:

- يلا.. هنروح مشوار.

***

• **الساعة الرابعة صباحًا.**

كان حاتم جالسًا على أحد الكرسيين يمسك سيجاره الفاخر وينفث سحبًا كثيفةً من الدخان تجوب المكان، وبالقرب منه كانت هناك جثة خامدة على كرسيٍّ مجاور حُرِق وجهها حتى أصبح كرغيف الخبز المحروق وقُطّعت أذناها وتسع أصابع من يديها، و بقيت أصبعها الوسطى من يدها اليسرى.

لم يقترب من قدميها لأن الملل قد أحاط به، بدت كرسالة لراسله، وموعظة لما سيأتي، بعد أن سحب منه كل معلومة يُريدها، وعذّب جسده وأخضعه حتى أصبح عبدًا ذليلًا تحت قدميه، ثم مات إثر نزيف حاد للدم، نهاية متوقعة لرجل وقع تحت يدي حاتم، كانت لحاتم سوابق تعذيب فظيعة

لم تكن هذه أفظعها، بل أراد بها أن يبدأ من جديد على صفحة سوداء لعمله القديم، يريد الناس أن يفتحوا صفحةً بيضاءَ كي يبدأوا من جديد، وهذا يفتح صفحة سوداء! ها هو الآن يعود مرة أخرى لتسليته المميزة تلك، لم يعد حاتم أدراجه بعد أن مات ذلك الرجل، بل استمر في النظر إليه وإلى قطرات دمائه التي تسقط على الأرض قطرة قطرة لتحدث صوتًا خفيضًا جدًّا، كانت بمنزلة عقارب للساعة بالنسبة لحاتم، القطرات تسقط وعقله يفكر في لعبته الجديدة..كم يُحب تلك الألعاب.

كانت أسئلة (هل) قد أثارت نشوةً داخله وغموضًا محببًا، بالإضافة إلى أن أسئلة (كيف) لم تخطر على باله قط.. فهو يعرف الإجابة.

***

لم يلبث كثيرًا في ذلك المخزن الفسيح، في هذا الوقت كانت شمس الصبح قد قاربت على البزوغ، وتغيَّر لون السماء إلى اللون البرتقالي الخافت الممزوج ببعضٍ من زرقة الليل القرمزية، الناس ما زالت موجودة داخل ذلك الكازينو الهادئ، ولكن بأعداد قليلة، القليل جدًّا يتناثر على بضع كراسي، وشخصٌ أو اثنان يمسكان بزجاجة من الشراب يقلبانها في أفواههما، وهما يرقصان على أغانٍ غير موجودة أصلًا.

أحكم الشراب فعلته حينها، في هذا الوقت دخل زيكو إلى حاتم ليرى التعذيب على ذلك الرجل المُلقى على الكرسي ودماؤه تسيل على الأرض كذبيحة العيد، ثم نطق زيكو بانبهار وهو يبتسم ابتسامة غريبة وكأنه رأى لوحة «خارطة الجحيم» لبوتيتشيلي:

- واو انت اللي عامل ده يا حاتم بيه؟!!

رفع حاتم حاجبيه غير مصدق لما يقوله زيكو، ذلك الرجل العجوز الأشيب الذي لم يظن حاتم يومًا أنه بهذا السوء قط يقول هذا! أومأ له حاتم رأسه بالإيجاب بعد أن نفث بعض الدخان من فمه بشرود.

نعم أنا من فعلت به هذا، ما رأيك؟! أنا فنان أليس كذلك!! ليس عليك أن تمدحني، فأنا أعرفني أيها العم زيكو.

مما يبدو أنه قد لوّث المكان بهذه الجثة العفنة ذات الرائحة العَطنة فقرر أن يتخلص منها في مكان، التقت قدماه اللتان ترتديان حذاءً أسود - ما زالت لمعته تغمز للناظرين - بالأرض حتى فتح بوابة المخزن الكاتمة للصوت - لا تُدخِل ولا تُخرِج الصوت، كم أحبُّ هذه البوابة!، قالها في نفسه ونظر نظرة طويلة في الأرجاء، ثم ذهب ليلاقي نسمات الهواء المنعشة التي يحبها في ذلك الوقت خصيصى - بعد أن أمر زيكو بمهمة - بدا سعيدًا ليقوم بها.

***

- لازم تجيبولي الولد ده يا معتصم؟! فاهم ولا لأ؟!

داخل مكتبه الخاص كان هذا جلال العاشوري يصرخ في وجه رجل من رجاله ذي البدلات السوداء، الحوائط ذات طابع خافت بيضاء جميعها، لا تخلو من بعض اللوحات غير المفهومة الذي يحبها ذلك العجوز الشاب، انحنى الرجل في احترام، ورد بثبات:

- أمر سعادتك.

خرج الرجل سريعًا وأغلق الباب وراءه وترك جلال منفردًا بنفسه، جلس مسترخيًا على الكرسي وراء مكتبه، ظل على هذا الحال كثيرًا، ينظر للسقف والهدوء يحكم المكان، ثم وجّه نظره نحو ذراعه اليسرى وهو يحدق إليه بنظرة غريبة، أمسك بكُم بدلته الفضية اللامعة ورفعه من معصمه حتى كوعه، ثم أخذ ينظر بأسى نحو تلك الإصابة القديمة التي تسكن باطن ذراعه الأيسر، تذكر أيامًا بائسة عاشها سابقًا، تذكر شخصًا ما وعدَه بالانتقام، تذكّر أعماله القديمة حينما كان يفعل بنفسه كل شيء، زَفَرَ زفرة النسيان، ثم فتح علبة ذهبية كانت على المكتب بها صفٌّ من السجائر الفاخرة، والتقط واحدة ليضعها بين شفتيه، ثم أشعلها بقداحته الخاصة، وجعل ينفث السحب الدخانية الكثيفة في الأرجاء.

لن يعبث معي هذا الطفل! سيُسحق كالبعوضة تحت يديّ هاتين!

هو لا يعرف من أكون بعد! ولكني سعيدٌ جدًّا لأنني وجدته أخيرًا.

هو لا يعلم أني انتظرتُ كثيرًا لأنتقم.

***

استيقظ حاتم بعد عدة ساعات طويلة من النوم المكسر للعظام، ثم ذهب برشاقة بعد كل هذا النوم إلى المطبخ وأعد فنجانًا من القهوة التركية التي يفضلها، لم يجد نفسه جائعًا وقتها، فلم يأتِ بأي طعام، ثم توجَّه إلى الصالة ممسكًا فنجان قهوته الساخن ليستقر على الأريكة ويضع فنجان قهوته على منضدة قريبة ويفتح التلفاز.

***

كانت على الجثة آثار تعذيب فظيعة متنوعة بين الحرق والقطع، لم يترك الجاني إلا إصبعًا واحدة من بين العشر أصابع التي في يديه، وُجدت هذه الجثة تطفو وسط مياه النيل الواسعة وقد وُضعت في كيس أسود ضخم يقدر على حمل رجل بالغ داخله، فانتشله رجال يصطادون السمك في الصباح الباكر وفوجئوا بأنها جثة!

تستمر التحقيقات لمعرفة قاتل ذلك الرجل الذي كُشفت هويته باسم «مؤمن عبد التواب سعيد أحمد».

سنوافيكم بكل جديد.. تابعونا!

***

- أخبار رائعة!

كان هذا حاتم يقولها في نفسه وهو يرفع فنجان القهوة إلى فمه وشبح ابتسامة ماكرة يرتسم على وجهه.

***

- إيه رأيك يا تالا لو تتفسحي كام يوم كده في أي مكان بره؟! باريس.. سويسرا.. إسبانيا.. أهي فسحة تغيري فيها جوّ.

كان هذا جلال العاشوري يحدث ابنته تالا وهو يمسك بيده اليسرى جريدة الصباح وفي الأخرى يمسك بكوب من الشاي الثقيل كما يحب، وعلى طاولة صغيرة أمامه كان غليون سيجارته الفرنسي مسندًا رأسه على مطفأة السجائر.

ردت تالا وهي تلاعب خصلات شعرها المنسدل وتشاهد التلفاز المفتوح على قناة الأخبار:

- حلوة الفكرة يا بابي.. بس إشمعنا؟!

- إشمعنا؟!

- إشمعنا يعني قلتلي كده في الوقت ده؟!

تلعثم وهو يبادل النظرات بينها وبين الجريدة:

- عشان تغيري جو يا حبيبتي.. هو أنا غلطان إني عايز افرحك؟!

- لا طبعًا يا بابي ربنا يخليك ليا.. بس أنا مش عايزه أسافر.

هنا انتفض فجأة ووضع كوب الشاي على الطاولة بغضب، ثم رمى بالجريدة على الأريكية وصرخ فيها وهو يحرك سبابته لأسفل وأعلى:

- غصبٍ عنك، مش بمزاجك، هتسافري يعني هتسافري.. سامعاني ولا لا؟!

لم تجرؤ تالا على الرد فلم تحرك شفتيها، أطرقت رأسها لأسفل في حزن وخجل قبل أن تنظر له نظرة دهشة لِمَا رأت على أسارير أبيها، فأبوها لم يصرخ فيها هكذا من قبل، فهي ابنته الوحيدة المدللة وكل ما له وعليه.

نظر جلال لابنته بندم على طريقة كلامه وصراخه في وجهها، فتوجه نحوها بهدوء وبطء، ثم جلس بالقرب منها واحتضنها وطفق يربت على رأسها ثم أمسك برأسها وهو ينظر لعينيها اللتين تبكيان من داخلهما بصمت، ثم قال بحنان:

- أنا خايف عليكي يا بنتي.. احنا في خطر .. لازم تسافري!

نظرت له بعينين حزينتين بريئتين وهي تقول في جهل:

- خطر إيه؟!

صمت قليلًا وهو يزم شفتيه ثم رَدَّ بهدوء:

- ماعتقدش إنك لازم تعرفي.. بس اللي أعرفه أنه حاجه مش كويسة خالص!!

ردت بعدما نظرت لعينيه باضطراب:

- اللتي تشوفه يا بابي.

نظر لها نظرة طويلة ثم ضمها إليه بتأنٍّ.. وسكنت الأصوات.

***

ظلا جالسين مدة ليست بالقصيرة داخل مطعم صغير - كافيتريا - يطل على كورنيش النيل وقريب جدًّا من كوبري قصر النيل الذي يحمل الأسود على عاتقيه، أكلا غداءهما وشرب كل منهما كوبًا من الشاي وظلا متمركزين بالقرب من زجاج المقهى الشفاف الذي يراقبون منه المكان، لم يتبقَّ الكثير على غروب الشمس ونزولها لبقعة أخرى من بقاع الأرض، بدأت الشمس في المغيب وما زالا يراقبان أي شيء مريب بالمكان، تذكر سعد وقتها ما قالته تلك العجوز المريبة التي تلعب لعبة الألغاز معه، «كالظلمة والنور والنهار والليل» لم يفهم أي شيء مما قالته قط، ولكنه لم يترك ثانية تطير هباءً إلا وقد فكر مرارًا وتكرارًا بما قالت.

- إحنا هنفضل كده كتير؟!

سكت لحظة ثم أكمل:

- أنت غلط على فكرة واللي بنعمله ده غلط!

قالها أنس وهو ينظر إليه بنفاد صبر بعدما انتظرا مدة طويلة، فرد عليه سعد دون أن يبعد نظره عن النافذة ليظهر التركيز على ملامحه الصلبة:

- اصبر هيظهر في أي وقت.

زفَرَ أنس في ضيق ولم يعقب، واكتفى بالنظر للمكان هو الآخر بتركيز مصطنع، فنظر سعد لأنس بنظرة خوف من أن يكون كل شيء خاطِئًا حقًّا، وأن كل شيء تخيله كان سرابًا.

***

سيحاولون قتلي بالتأكيد، كل ما علي فعله هو المواجهة، لن أظل مكتوف الأيدي هكذا، لطالما واجهتُ، ولطالما سحقتُ أعدائي، فلِم الخوف الآن؟! كان مضطربًا شاكًّا فيما فعله، فقد هدّد نفسه بنفسه، ولكنه دائمًا ما كان يقول لنفسه: إن لم تفعل فسيفعل، وقد فعل، اكتُشف الأمر الآن، ظهرت الوجوه من وراء الستار، وبدأت الحقيقة في الظهور بعد غياب طال كثيرًا، ذلك

الرجل المجهول الذي أبى أن يدلي له بأي معلومة عنه وعن مراده، ذلك الرجل الذي طلب منه مهمات القتل مقابل ملايين الجنيهات، كان يعمل لدى جلال العاشوري، كان يستدرج حاتم لفخ مُحتَّم، وأيضًا ذلك الرجل الذي أرسل له رسالة يخبره فيها بأنه قد التقط صورًا له في أثناء قيامه بعملية اغتيال رجل الأعمال المحنك «سليمان منصور» كان نفس الشخص، ومن ثم اكتشف أنه صديق الخادم، كان هو أيضًا يعمل لديه إذن!، ظل يسأل نفسه مرارًا وتكرارًا ماذا سيستفيد من هذا؟! لِمَ يطلب مني اغتيال بعض الأشخاص المهمين ثم يبعث برجل ليتجسس عليَّ ورجل آخر يريد تهديدي بنشر صوري؟! كل ما قام بفعله أظهر نيته في فضحي أمام العالم وتهديدي كي أموت موتًا بطيئًا، وهنا يأتيه السؤال سريعًا: لماذا؟! لِمَ يقوم بكل هذا؟! لم أقتل له قتيلًا مثلًا، لا أدري ماذا يحدث، ولكنني سأدرك هذا قريبًا.. أدرك حاتم جيدًا أنه يُستدرج.

جلس في سيارته المرسيدس السوداء بعدما تسلح ببعض الأسلحة الذي سيحتاجها قريبًا، واسترخى على الكرسي وهو يمسك بالمقود، ثم أدار مشغل «التكييف» لتنتشر ذرات الهواء الباردة في السيارة وتتخبط في وجهه الساكن.. هدأ قليلًا ثم أدار مشغل الموسيقى بالسيارة ليدور في الأرجاء صوت «Eminem» – مغني الراب العالمي:

I'm not afraid to take a stand

Everybody come take my hand

We'll walk this road together، through the storm

Whatever weather، cold or warm

Just letting you know that you're not alone

Holla if you feel like you've been down the same road

ظن لبرهة أنها جاءت في وقتها.

***

لم يلحظوا أي شيء غريب منذ بدأت الشمس في المغيب، ارتبك سعد لثانية عندما دخلت برأسه فكرة أنه قد أخطأ ولم يفهم اللغز، ولكن سرعان ما ظهرت سيارة سوداء بدت له سيارة مرسيدس توقفت أمام كازينو شامبيين المشهور، ليهبط منها رجل ذو طول فارع وجسد ممشوق يرتدي نظارة شمسية لامعة ويحمل وجهًا ذا طابع جامد صارم لم يبدُ عليه قط أنه جاء ليمرح.

***

سار بخطى ثابتة تجاه الكازينو وهو يرمق بعينيه كل شيء يسير ويُسار عليه، يعلم جيدًا أنهم يتبعونه وسيفعلون المستحيل كي يتخلصوا منه ويلصقوا به تهمة كل الأحداث التي مضت، بالتأكيد هذه نيتهم، تحسَّس سلاحه المعلق بحزامه، فاطمأنَّ لوجوده، توجَّه بقلب جامد نحو البوابة الكبيرة ثم اختفى داخل الملهى في ثوانٍ قصيرة كي يغرق في إيقاع موسيقى الجاز «JAZZ» الهادئة.

***

- بُص!

قالها سعد وهو يُشير بسرعة إلى ذلك الرجل الذي يرتدي بدلة سوداء لامعة ويمشي بهدوء ناحية الكازينو، وهو يضع الكثير من الشك ناحيته، سكت الاثنان ولم يعقبا واكتفيا بالنظر ومراقبة ذلك الرجل، لا يعلم سعد كيف حصل ذلك، لكن يقينًا مفاجئًا جعله يقفز من فوق الكرسي ويأخذ أنس من يده ويتجه نحو الكازينو.. دون الخوف من أي عواقب مجهولة.

***

في هذا الوقت كانت تالا جالسة في بيت صديقتها «ياسمين» تُمسك كوبًا من الشوكولاتة الساخنة وتشاهد التلفاز بدون أي تركيز أو استماع.. لاحظت ياسمين شرودها، فحدثتها قائلةً:

- إيه يا توتي مالك؟!

ردت تالا بشرود مستمر وبصوت ضعيف:

- مفيش حاجه يا ياسمين..

- لا في حاجة، أنا شايفة في عنيكي حاجة عايزة تقوليها!

زفرت تالا الهواء ساخنًا ثم نظرت إلى ياسمين وهي تبعد الكوب عنها وتقول:

- مش عارفة بابا ماله؟!

ردت ياسمين بتوتر:

- ليه في حاجة حصلت؟!

ابتلعت ريقها، ثم ردت بتقطع:

- بابا زعقلي النهاردة وقاللي لازم تسافري بره..

قالت ياسمين بدهشة:

- ليه.. اشمعنا؟!

تحدثت باضطراب وهي ترد قائلة:

- مش عارفة، ده أول مرة يزعقلي بالشكل ده، قعد يقول لي كلام غريب كده.. خطر وسفر وخايف عليا، مفهمتش منه أي حاجة!

ردت عليها بتساؤل:

- مش عارفة قال لك كده ليه؟!

ضمت قدميها إلى صدرها وأراحت ذقنها على قدميها، ثم نطقت تالا وهي تنظر للنافذة المواجهة لها بشرود:

- يا ريتني أعرف.

الصورة الأخيرة

بصق العلكة - داخل صندوق صغير للنفايات - التي كانت في فمه وهو جالس على ذلك البار، ثم نظر لأعلى تجاه شخص يصبُّ الشراب في الكؤوس ويقدمها للجالسين، فلاحظ البارمان نظراته فتوجه نحوه بكأس فارغة وقد فَهِمَ مراده، وضع الكأس أمامه ثم ملأها بالشراب وهو يبادل النظرات بين الكأس والرجل الجالس إزاءه، انقطع الصمت حين قال البارمان موجهًا حديثه للرجل الجالس:

- شايف في عنيك غضب.. حد مزعلك تاني؟!

أنهاها ببسمة اتسعت على مضمار وجهه، فابتسم الرجل الجالس هو الآخر ولكن ببسمة أكثر اتساعًا.

***

- عايزك تعرف كل حاجة عن الراجل اللي اسمه جلال العاشوري ده؟!.. أعماله اللي الناس عارفاها و.. الأعمال اللي الناس مش عارفاها.. شركاته.. بيوته.. حساباته، أصله وفصله.. عايز كل حاجه عنه.

سكت فأكمل:

- تمام؟!

قالها حاتم هامسًا لزيكو البارمان وهو يحدق إلى عينيه في تركيز، فرد زيكو بثبات:

- كل حاجة هتبقى عندك بكره الصبح.

رد حاتم بنفاد صبر وهو يزم شفتيه:

- مش هعرف استنى لبكرة الصبح.. ممكن قبل ما ييجي الصبح أكون اتقتلت!

نظر زيكو لحاتم وهو يسند ذراعيه إلى البار بشك، ثم قرر قراره في نفسه وقال بثبات وهو يبتسم:

- حاضر.

ابتسم حاتم له تباعًا، ثم قام من على الكرسي، والتقط كأس الشراب ثم قذفها في فمه سريعًا، وعندما همّ أن يغادر المكان تذكر أمرًا مهمًّا جدًّا ولام نفسه لأنه نسي الأمر، فعاد لزيكو وطلب منه قلمًا وورقة فأتى زيكو بهما، فكتب حاتم رقمًا على عجل، ثم أشار لزيكو بأن اقترب ليهمس في أذنه ببضع كلمات بدا فيها أنه في قمة الجدية، ثم أنهاها ببسمة، حيث كان هذا الأمر الأخير هو الشيء الوحيد الجيد الذي فعله طوال حياته، وكز زيكو في كتفه شاكرًا وانطلق للخارج.

وما زالت الابتسامة تُزيّن شفتيه.

أحبُّ القتل لأي سبب أخلقُه في رأسي، وأعشقُ الدماء وإن كانت لأطفال لم يستطيعوا النُّطق بعد، لا أكرهُ طبعًا تدمير بضع مئاتٍ من البيوت والمساجد والكنائس على رؤوس من بها، ولا أعبأ بنوع البناية أبدًا، فكلها أبنية، فقط أنا عليّ أن أدمّر، التدمير يريح أعصابي كثيرًا..كم أحبُّ هذه اللعبة حقّا! فأنا الأفضل فيها على الإطلاق.. إذن وحتى الآن، هل عرفتَ من أنا؟!

- اقتربت بداية النهاية، سيدي الرئيس.

قالها «الاستبداد» الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية أخفت تجاعيد وجهه العجوز، ثم أكمل قائلًا وهو يضع يدًا على يد:

-إن سمحت لي سيدي الرئيس، أتشرف بأن أقول لسيادتك ولكل إخوتي الأعضاء الموقرين، أننا قد نجحنا نجاحًا باهرًا، لن يقدروا على الوقوف مرة أخرى، فقد دُفن الغضب في قلوبهم، وتجمعت الأتربة مُكدسةً فوق عقولهم، لم يعد يهمهم الجمع ولا الوطنية ولا الإيخاء، ولا أي مصطلح يُعنون تحت خط التوحّد، فالآن كُلٌّ يهمه نفسه وفقط، أظنُّ أن الوقت قد حان للضربة القاضية، إن تلقوا أي ضربة الآن ولو كانت صغيرة، سيسقطون دون عودة.

انتهى «الاستبداد» من حديثه فنظر له «الظلم» بشكٍّ وهو يضع يده اليسرى تحت ذقنه، ثم قال وهو يهز رأسه معارضًا:

- لا أظنُّ ذلك!

أمسك بهاتفه الخاص بعد أن أنهى نوبته في العمل وأخذ استراحة قصيرة، واتصل بصديق له، لم ينتظر كثيرًا حتى جاءه الصوت الخشن:

- ألو مين معايا؟!

رد زيكو باحترام مبالغ:

- زيكو يا هادي باشا، نسيتني ولا ايه؟!

رد الرجل بنبرةٍ سعيدةٍ منافقةٍ حيث بدا أنه تذكر:

- لا إزاي بس يا راجل.

- إزي سعادتك، بخير؟!

- نحمده ونشكره يا عم زيكو، إيه.. مصلحة؟!

بالتأكيد مصلحة، هل سيتصل من أجل الاطمئنان على صحة رجل مباحث في أمن الدولة ومعرفة حال أولاده، قطعًا لا، لم تعد تلك الاتصالات ذات الاطمئنان والسؤال وبث بعضٍ من كلمات الاشتياق لمن تحدثه موضة

ذات صيت يمشي عليها بشر هذه الأيام، لم نعد نشبه أيام التلغرافات أو حتى ما قبل التسعينيات قط، تقلّ الاتصالات ويقلّ التواصل، لكنها تكون سعادةً حقيقيةً وخوفًا واطمئنانًا حقيقيين من الجانبين، التفضيل بالطبع لاتصالات الستينيات القليلة ذات الطابع السعيد الصادق، على اتصالات اليوم الكاذبة المنافقة التي لا تأتي إلا بمصالح.. شخصية.

بالتأكيد إلا مَن رَحِمَ ربي، ردَّ زيكو باهتزاز:

– كنت بتطمن على الباشا كده.. وعايز مصلحة صغيرة أوي؟!

رد الظابط هادي بنفاد صبر:

– ها؟!

– فيه واحد اسمه جلال العاشوري، تعرفه؟!

– أكيد، مش ده راجل الأعمال المشهور بتاع مصانع الحديد والسيراميك؟!

– بالضبط، هو ده، أنا عايز أعرف كل حاجة عنه: أصله وفصله، والأهم انك تجيبلي حاجاته اللي من تحت لتحت، الحاجات اللي الناس مش عارفاها.

ردَّ هادي عليه بعد صمت دام ثانيةً:

- مش عارف أقول لك إيه، الراجل ده متحصن جامد، وليه سند من ناس كبار أوي، وصعب أجيب معلومات عنه، بس..

- هادي باشا، ليلتك الجاية عندي أنا وهروق عليك جامد، هتشوف يوم ماشوفتوش في الكازينو، وفي حتة صنف جايلي جديد، عال العال، وهيبقى من نصيبك أنت.

صمتَ ثانيةً ليُكمل:

- ها قُلت إيه؟!

ابتلع هادي ريقه ثم قال بشكٍّ غَلَبَه الشوق:

- ماشي يا زيكو.. هشوف.

صمت زيكو قليلًا ثم تحدَّث بلهجة جادة هادئة:

- هادي باشا، عايز أعرفك إن فيه واحد هيتقتل لو المعلومات مجتش قبل بكره، أنا مش عايز أستعجلك ولا حاجة، بس بفهمك الموقف كويس أوي.. أنا آسف لو هضايقك.

- يا راجل متقولش كده، أهم حاجة الصنف تمام؟!

- تمامين يا باشا!

رد هادي بنبرة سعيدة مفتخرة:

- خلاص المعلومات هتجيلك الساعة ١٢ بالليل.

سكت قليلًا ليضيف:

- إن شاء المولى.

أنهى زيكو المكالمة بابتسامة حملتها شفتاه، وبصق على الأرض في ضيق بعدما وضع هاتفه في جيبه وهو يقول في نفسه:

- تبًّا لهذا الشَّرِه اللعين!

***

أشار إليه بأن يمشي بالقرب منه وأن ينظر أمامه ولا يلتفت لأي شيء آخر، فأومأ له بالموافقة بتوجس، أخرج علبة سجائره ليلتقط واحدة ويشعلها بين شفتيه، علّها تُهدّئ نبضات قلبه العنيفة - أكثر مواقف أنس المثيرة والمشوقة كانت عندما بدأت مشاجرة بين عائلته وعائلة أخرى عندما كان صغيرًا يعيش في الريف، لهذا كان ما يفعله الآن بالنسبة له أمرًا لم يعشه قط، نظر سعد لذلك الرجل الذي خرج من الكازينو ويرتدي نظارة سوداء ويمشي بخطى وئيدة، ثم عبر الاثنان الشارع دون النظر إليه حتى وصلا إلى البر الآخر، وسارا باتجاه سيارته التي سيقودها، لا يعلم سعد سببًا

لفعل هذا، وكأن مغناطيسًا يجذبه لهذا الرجل، ربما الفضول وحب المعرفة والمخاطرة، وربما نية الانتحار! فسعد لا يريد الحياة الآن، ليس له متعة في العيش، لكنني أتوقع الخيار الأول، الفضول، ولكن في هذه الأوقات الحرجة يُصبح الفضول أمرًا قاتلًا.

سارا باتجاهه وأنس ينظر إليه نظرةً ليست في محلها، تبعه سعد يرقبه هو الآخر ولكن بنظرات درامية أكثر، والتقت أعين حاتم وسعد في آنٍ واحد، حاتم يضع بعض الشك حولهم، وسعد وأنس يلعنانه في قرارتهما، كيف تقتل رجلًا مثل سليمان منصور؟! كيف تقتل رجلًا شريفًا يفعل الخيرات بهذه الطريقة؟!، كان هذا كل ما في بالهم، نظر له سعد بضيق، واستمر الصديقان في السير حتى اجتازاه.

سارا بضعة أمتار قليلة، ثم التفت أنس للوراء وتبعه سعد، ثم فتحا فميهما من الدهشة، أين الرجل؟! كان واقفًا هنا، عادا للخلف بهدوء واتجها نحو سيارة المرسيدس السوداء وكأنما يعودان أدراجهما، ظنًّا منهما أنه قد دخل بها، فنظر الاثنان للسيارة من الداخل بنظرة درامية غير لافتة للانتباه، فلم يجدا شيئًا! استقرَّ الاثنان أمام الباب الأمامي للسيارة ينظران داخلها بحثًا عنه ولكنهما لم يجدا أحدًا، أين ذهب بحق الله؟!

- بتعملوا إيه يا ولاد؟!

قالها حاتم بنبرة مفاجئة غاضبة وهو يمسك بمسدسه من تحت بدلته السوداء ويقف وراءهما، فانتفض الاثنان باضطراب للخلف ليرى كلٌّ منهما من يتكلم. نظر لهما نظرة تشي بشخص بدا وأنه قد أمسك بفريسته، فنظر الاثنان له برعب وفتحا ثغريهما في دهشة بعد أن قُطّعت ألسنتهما عن التفوه بأي حرف، فضحك حاتم ضحكته الشريرة وهو ينظر لهم نظرةً أكثر شرًّا ويقول:

- إيه.. فاجئتكوا؟!

***

تجمهر عدد كبير غاضب من الأقباط يُقدّر بالمئات بالقرب من كنيسة «مارجرجس والأنبا إبرام القبطية الأرثوذكسية» بمصر الجديدة يشيدون بواقعة انفجار كنيسة «مارمرقس الرسول القبطية الأرثوذكسية» ويطالبون بمعرفة فاعل تلك الجريمة الشنعاء، ولكن وفي وسط كل تلك الأعداد الكبيرة رفع رجلٌ عجوزٌ منشورًا يتهم فيه المسلمين والإسلام بفعل هذه الجريمة مبهمة الحقيقة.. ولكن الـ..

***

كان ذلك صوت المذيعة الشقراء وهي ترتجل هذا الخبر الغريب الذي يستمع له كل من في هذا المقهى الشعبي في حيٍّ من الأحياء الشعبية بدهشة وتساؤل، فهم لم يسمعوا عن هذه الظاهرة منذ زمن بعيد، سأل رجلٌ كبير السن سمين الجسم أصلع الرأس يرتدي جلبابًا واسعًا - بدا من جلسته أنه رجل المنطقة - شابًّا بالقرب منه بعدما انتهت المذيعة من حديثها:

- ألا قل لي يا بني، يعني إيه تجمهر دي؟!

نظر له الشاب باحتقار من أعلى إلى أسفل ولم يرد، ثم ابتعد في جلسته عن العجوز وأسند ذراعه اليمنى على يد الكرسي ليظهر الصليب على يده، فلاحظ الرجل الضخم الصليب فانتفض غاضبًا وهو يقول ملوحًا بيديه:

- إيه ياض يا كوفتس مبتردش عليّ ليه؟!

انتبه الجميع لما قاله ونظر الجميع بدهشة وترقُّب، ولكن الشاب لم يرد واكتفى بالصمت وهو يزفر بضيق، اشتعل الرجل الضخم غضبًا فانقض على الشاب يجذبه من قميصه، وهو يصرخ فيه:

- مبتردش عليّ ها؟! مبتردش عليّ أنا؟! ده أنا المعلم فتحي يا عيل يا حيوان، المعلم فتحي.. ريس الحتة!

أنهى جملته الأخيرة ولعابه يتطاير في وجه الشاب غضبًا ثم لكمه لكمة خاطفة قوية أطاحت بالشاب على طاولة صغيرة بها بعض الكؤوس لتتهشم وتنكسر الطاولة إلى نصفين، وفي غضون ثوانٍ قليلة اشتعل المكان بقذف الكراسي وتكسيرها على الرؤوس، لتبدأ النساء بالصراخ والعويل طلبًا للنجدة ممَّا يحدث.

وانقلب المقهى رأسًا على عقب بسبب كلمة واحدة: تجمهر!

***

– بصي يا بنتي، أنا مجرد راجل عجوز اتطلب منه يوصلك رسالة، إنتِ مش مجبرة انّك تصدقيني، لأني عارف إن الشيء ده صعب انّك تصدّقيه.

سكت قليلًا ثم قال:

– لأني أنا أصلًا ماصدّقتش في البداية، إلا لما شفت قدّام عينيّ.

واستمر زيكو في الحديث لدقائق طويلة يقول فيها ما أمره حاتم أن يقول، مرفقًا لتالا عبر الرسائل صورًا وأشياء تثبت ما يقول حقًّا، حيث قال عن حاتم أشياء صعبة التصديق، وقال عن أبيها أشياء مستحيلة التصديق، وفي كل مرةٍ كان ينهي فيها زيكو جملته كانت هناك دمعتان تسيران على وجنتي تالا، وفي نهاية الحديث نطق زيكو بصوت عميق:

- ابعدي يا بنتي عن الراجل ده، شوفي مستقبلك بعيد عنه، وانسي انك عرفتي الاتنين دول أصلًا، سافري، اشتغلي برّه، اعملي أي حاجة، بس ابعدي، عشان حاجه واحدة بس.. عشان تعيشي.

سمعت تالا الكلام للنهاية، ثم ابتسمت ابتسامة منكسرة.

***

أحبّــك تبتـدي البدايات..

تاخدني ضحكتك بالذات..

تعيدني روح وقلب وذات..

- حلوة ها؟!

سكت حاتم بعد جملته الأخيرة وهو يمسك بسلاحه الأسود ويوجهه ناحية شخص يجلس بقربه ليرتفع صوت الأغنيةِ مرة أخرى داخل السيارة.

تزيدني كشف للمستور..

أحبك ضي روحي يبان..

وأعبر ضلمة الحرمان..

وأهجر غابة الأحزان..

وأحقق حلمنا المسحور.

انتهت الأغنية بإيقاع خافت حتى توقف «الكاسيت» عن التشغيل، فوضع حاتم سلاحه على فخذه وبدأ بالتصفيق ثلاثًا ببطء وبرود شديدين، ثم أمسك بسلاحه مرة أخرى وأمر سعد الذي يجلس أمام مقود السيارة بأن ينطلق.

تردَّد سعد كثيرًا وقد تفجرت قطرات العرق على ساحة جبينه العريض.. ما زالت عيناه تخترقان تلك المرآة الأمامية للسائق بخوف مبالغ كي يرى آمره على مضض.

أدار المفتاح في مكانه ثم انطلق بالسيارة لتبدأ دورة التوتر والخوف بالتشغيل مرة أخرى وأشدّ من سابقتها، نطق حاتم مبتسمًا:

- ده كان «علي الحجار».. مش كده؟!

قطع حبل الصمت الطويل الذي استمر دقيقتين موجهًا حديثه لأنس الذي يجلس بقربه متصلب الملامح، لم يعقب أنس، فقط تسمر على هيئته ولم ينبس ببنت شفة.

جاءه صوت سعد خائفًا بعد صمت طويل:

- إنت ليه بتعمل فينا كده؟!

رد عليه حاتم بصرامة وجدية بعدما اعتدل في جلسته:

- انتم اللي بتعملوا فيا كده ليه؟!

ردَّ أنس بتوجس ورعب:

- و و... والله ما عملنا حاجة!!

صرخ حاتم في وجه أنس وأسنانه تصطك ببعضها البعض في غضب قائلًا وهو يوجِّه سلاحه بالقرب من رأس أنس:

- إزاي معملوتش ها؟.. إزاي؟!

صرخ أنس في ذعر:

- احكيله يا سعد.. احكيله.. قوله عاللي شوفته.

ترك حاتم أنس واتجه ناحية سعد - الذي يقود ببطء واضطراب، ثم قال بالقرب من أذنه:

- اركن.

ابتلع سعد ريقه ثم اتجه للحارة اليمنى كي يتوقف بالسيارة، وعندما توقف:

- صاحبك بيتكلم عن إيه؟ ارغي!

ابتلع سعد ريقه مرة أخرى ثم التفت تجاه حاتم وبدأ في سرد ما حدث له من أول كابوس له وحتى آخر لقاء كان مع تلك العجوز الغريبة.

***

قام حشد كبير من المسلمين بالتجمع داخل ميدان «الجمهورية»، بعدما أنهوا صلاتهم في ساحة مسجد الرفاعي، يطالب بالتحري عن الفاجعة في تفجير مسجد «الرفاعي» بمصر القديمة..

ما زالت التساؤلات تملأ الصفَحات، ولكن وإلى الآن لا أجوبة.

***

- إنت اهبل يلا انت وهو، إنتم مفكرني إني هصدق الكلام العبيط اللي بتقولوه ده؟!

قالها حاتم بغضب وهو يصرخ في وجه سعد، فغرق سعد في عرقه وخوفه، ثم قال بتردد وتقطع بعد صمت دام ثانيةً:

- والله العظيم يا باشا حصلي زي ما قلت لحضرتك بالضبط.. لا نقّصت كلمة ولا زوّدت.

زَفَرَ حاتم في ضيق وأسند ظهره للمقعد وهو يمسك بسلاحه ثم قال ببرود:

- شكلكم كده ولاد ناس، وعبط كمان، طب نفترض كده اني انا صدقتكم، عايزك تشرحلي بقا جيتولي الكازينو ليه وإزاي؟!

نظر الاثنان لبعضهما البعض في توجُّس وخوف، وطال صمتهما لثوانٍ قصيرة، فوجَّه حاتم سلاحه نحو رأس أنس المرتجف وقال بغضب موجهًا كلامه لسعد:

- انطق!

نظر حاتم في عيني سعد الضيقتين فرأى فيهما الخوف والرعب، لا خوفًا من الموت، ولا خوفًا من ذلك الشيء الأسود المخيف، ولا خوفًا من أي شيء آخر، بل خوفًا على روح هي المتبقية له في الحياة، لم يعد يحتمل خسارة أحد يملك جزءًا كبيرًا من قلبه.

بدأ جسمه في الارتجاف، واستمر الصمت لثوانٍ حتى صرخ سعد وهو يبكي بضراوة ويقول:

- حرام عليك والله، حرام عليك.

أنهى جملته الأخيرة سريعًا ثم انقضَّ يمسك لاإراديًّا بماسورة سلاح حاتم السوداء ثم وجّهها نحو رأسه وأغمض عينيه اللتين سال العرق عليهما وهو يصرخ ويقول:

- متقتلوش بالله عليك، اقتلني أنا، أنا عايز اخلص من الدنيا ومن قرفها، اقتلني وخلصني! دوس! اقتلني بقول لك، أنت مستني إيه دلوقتي يا عم انت؟!

لا يعلم حاتم لِمَ لَم يطلق النار عندما انقض عليه فجأة وأمسك بسلاحه، خالَجَهُ شعورٌ غريبٌ تجاه هذا الرجل، لا يدري وكأن شيئًا مُرًّا لاذعًا قد عبر حلقه عندما صرخ يبكي بهذه الكلمات، ربما شعر بصدقه، لكن ما يقوله لا يصدقه العقل.. ربما هو بارع في التمثيل، وإن كان بارعًا في هذا كيف تأكد أنه لن يطلق النار عليه؟! دوَّى الصمت في المكان دقيقةً، أنس ينظر بدهشة لسعد وينظر أيضًا بخوف تجاه حاتم، وسعد مغمض العينين ويبكي بكاءً صامتًا، أما حاتم فكان ينظر لسعد بشفقة غير متوقعة منه ألبتة وهو يمسك سلاحه الأسود.

***

قطع الصمت صوت رنين هاتف حاتم النقال، فأنزل سلاحه ووضعه على فخذه اليمنى بعيدًا عن سعد بعدما زفر بهدوء، ثم أخرج هاتفه ليرى اسمًا مُهمًّا بالنسبة له، فأجاب:

- إيه يا زيكو إيه الأخبار؟!

قالها حاتم بلهفة ونفاد صبر، فرد زيكو على عجل:

– يا حاتم بيه، ده طلع راجل عالي أوي، ليه ناس سانداه وكتير كمان.

– يعم عرفنا والله، إيه الجديد خلصني؟!

ابتلع زيكو ريقه ثم أكمل قائلًا:

– وكمان طلع مش مصري بس.

– نعم! تقصد إيه بأنه مش مصري بس؟! إنت بتهزر؟!

– قصدي يعني عنده الجنسية المصرية وكمان عنده الأمريكية ومتجوز واحدة أمريكية، والاتنين يهود.. المهم الراجل ده سافر من عشرين سنة لأمريكا وحاله ساعتها كان متوسط ويمكن أقل كمان، ولما رجع لمصر كان عنده بلاوي متلتلة.. إزاي؟! معرفش!.. مراته مرضيتش تقعد معاه في مصر أكتر من ٣ سنين وراحت تعيش في إسرائيل، وعندهم ابنة واحدة اسمها «تالا» وعايشة معاه حاليًّا.

صمت حاتم ثانيةً ليصدق ما يسمعه، ثم قال بتساؤل:

– متأكد من الكلام ده يا زيكو؟!

– أيوة متأكد يا باشا أمال ايه!

– تمام.. كمّـل!

- بالنسبة للسفر فهو بيسافر كل سنة مرة أو مرتين لإسرائيل ومرة تقريبًا لأمريكا و بـ..

تكسّر زجاج السيارة الخلفي وتناثر على الجميع جراء عدة طلقات نارية أصابت السيارة فجأة.. انخفض الجميع خوفًا ليُقذف الهلع في قلبيْ أنس وسعد.. لم يسمع حاتم باقي الحديث لأنه رمى الهاتف من يده - بعد أن أغلق المكالمة في وجه زيكو - وأمسك بسلاحه ليصرخ في سعد المرتجف وهو يقول:

- اطلع بسرعة!

***

وللمزيد من التفاصيل معنا مراسلنا الزميل «أحمد قاسم» من أمام كنيسة (مارجرجس والأنبا إبرام) ؛ أحمد، ما الموقف الآن؟!

زميلتي عائشة، حدثت حركة طفيفة منذ قليل داخل الصفوف نتج عنها ودون أي سبب واضح مسيرة كبيرة من الأقباط يتوجهون الآن نحو ميدان الجمهورية، بعدما اعتصموا مدة طويلة أمام كنيسة (مارجرجس والأنبا إبرام)، وهم يهتفون الآن بأسماء المسؤولين طلبًا للحقيقة.

لا نعلم نتيجة هذا، ولكننا نتمنى كل خير.. حفظنا الله وطنًا وشعبًا.. كان معكم أحمد قاسم، كنيسة مارجرجس والأنبا إبرام، القاهرة.

***

انطلق سعد بالسيارة لا إراديًّا ليسير بالسيارة بسرعة كبيرة بعدما سمع صوت صراخ حاتم في وجهه، ما زالت الأعيرة تُطلق، ولكنهم لا يسمعون صوتها بل صوت الاصطدام إن وجد - فمن يطلق النار يضع كاتمًا للصوت .. نظر حاتم من النافذة المكسورة بترقب ليجد سيارتين تلاحقانهم، وكل سيارة بها شخص يقود والآخر يطلق النار، نظر حاتم لسلاحه بتركيز والعرق يتسرب من جبينه ثم وضع كاتم الصوت هو الآخر، وفتح النافذة السليمة التي بجواره واستعد ليبدأ لعبته المفضلة.

***

بدأ تبادل إطلاق النار، جعل حاتم تركيزه على السيارة الأولى حيث بدأ يطلق النار عليها فقط دون الأخرى، فأُصيب سائق السيارة الأولى لتنحرف السيارة عن الطريق وتنقلب عدة انقلابات وتستقر على جانب الطريق.. تبقّت سيارة الآن.. وسعد لا يقدر على تصديق أي شيء مما يفعله وهو يقود بطريقة غريبة يكاد يقتلهم بها!

انتهت ذخيرة حاتم فلقم مسدسه من جديد وصرخ في سعد قائلًا:

- نط عالكرسي اللي جنبك!

- بتقول إيييه؟!

أعاد حاتم ماقاله بنفاد صبر وعصبية:

- بقولك اتزفت نط عالكرسي اللي جنبك، أنا اللي هسوق!

نظر سعد له بعدما فَهِمَ، ولكنه لم يملك خيارًا فما يفعله هو الجنون بعينه، لن تزيد قفزة إلى الكرسي المجاور معدل الجنون كثيرًا..

قال حاتم بتحفز:

- معايا عند تلاتة.. واحد.. اتنين.. تلاتة!

قَفَزَ سعد على الكرسي الثاني ليختبئ تحته، وتَبِعَه حاتم سريعًا ليمسك المقود بشغفٍ، وهو يبتسم ابتسامة غريبة.. إذا كنتُ سأموت فستموتون معي.

***

خبرٌ عاجل: اشتعلت اشتباكاتٌ بين المتظاهرين من المسلمين والأقباط نَتَجَ عنها إلى الآن أحد عشرَ جريحًا، وتدمير ثلاث ملكيات خاصة وإشعال النار فيها.. وأطلقت قوات الأمن قنابل الغاز المسيلة للدموع للتفرقة بين المتظاهرين، ولكن هناك حالة غريبة لاحظتها كاميراتنا، فالمتظاهرون يبتعدون عن بعضهم البعض ثم يعودون مرة أخرى للاشتباك! لا ندري ما السبب، ولكننا نطالب السلطات بالتحكم بالموقف والتصرف إزاء الأمر عاجلًا خوفًا من وقوع عدد آخر من الإصابات!

- إنت رايح فين يا عم انت؟!

قالها سعد بتساؤل بعدما رأى ابتسامة حاتم الغريبة في وقت أكثر غرابة، فرد عليه بعدما اقترب من وجهته آمرًا:

- امسك الدريكسيون!

نظر له سعد بذهول ولكن نظرة حاتم أجبرته على الإجابة سريعًا، فأمسك سعد بالمقود وترك حاتم ليلعب قليلًا مع أصدقائه الجدد.

***

زملينا «مُصعب» مراسلنا من قلب الاشتباكات، مُصعب ماذا يحدث عندك الآن؟! أنا لا أصدق الأمر زميلتي عائشة، حدث الأمر سريعًا، لا أدري هل تدخل العقلاء من الطرفين أم ماذا؟! ولكن الاشتباكات هدأت معظمها أو ربما انتهت جميعها، أيضًا في المشهد هنا وحتى الآن يمسك شيخٌ كبير عرفه البعض بأنه إمام مسجد الرفاعي بيدِ قسٍّ كبير من أبناء كنيسة مارجرجس والأنبا إبرام ويرفع كلاهما يده في السماء، الشيخ يمسك بالإنجيل يرفعه عاليًا بابتسام وبجانبه القس يرفع القرآن في الأعالي بشموخ ورهبة، ربما هذا المشهد هو السبب في هذا الهدوء المفاجئ، لا أدري! ولكن الأهم الآن هو اجتياح السلام والأمان في المكان، كما تسمعين عائشة هناك

هُتافات موحدة تطالب بالتحقيق ومعرفة الحقيقة حول واقعتي تفجير مسجد الرفاعي وكنيسة مارمرقص الرسول، الآن توحَّد المصريون، توحَّد الشمل ورجعت العقول لأماكنها، زميلتي عائشة، أنا لا أقدر على وصف فرحتي لهذا المشهد الرائع، كم أفتخر أني مصريٌّ حقًّا. حفظ الله مصر وشعبها.. كان معكم مُصعب عبد الخالق، ميدان الجمهورية، القاهرة.

***

استمرَّ حاتم في القيادة بشكل متهور تجاه مكانه المنشود ومن ورائه تلك السيارة المتبقية. اقترب كثيرًا، اقترب، اقترب وتوقَّف الوقت عندما شاهَدَ تلك البوابة العظيمة، تمنى بداخله أن تكون فكرةً ناجحة، ويقوم بما ينوي القيام به.. زاد من سرعة السيارة وقد تعدت سرعته المئة كيلومتر في الساعة، وما زالت في زيادة مستمرة، فصرخ فيه سعد مندهشًا:

- إنت بتعمل إيه؟!

ابتسم حاتم ابتسامة شيطانية ثم قال بصوت عالٍ:

- امسكوا نفسكوا!

نَظَرَ سعد وأنس لبعضهما البعض في رعب ثم هبطا تحت كرسيهما بسرعة وتبعهما حاتم.. وفي ثانيةٍ توقف فيها الزمن اخترقت سيارة حاتم تلك البوابة

العظيمة التي يملكها «جلال العاشوري» لتدخل المكان بأسلوب غير حضاريٍ ألبتة.. ابتسم حاتم من تحت كرسيه عندما علم بنجاح الأمر، ثم رفع رأسه مرة أخرى ونظر أمامه ليقابل رجلين من الأمن يركضان نحوه مشهرين عن سلاحيهما فهبطوا جميعًا مرة أخرى ما عدا حاتم الذي توجَّه نحوهما وصدمهما بالسيارة ليقذفهما بعيدًا ويدور بالسيارة دورة كاملة ليصدر صوت احتكاك عالٍ حتى استقر أمام باب المبنى الداخلي تمامًا ثم خرج من السيارة سريعًا واختبأ وراء عمود ضخم وتبعه سعد وأنس خائفين مذعورين وراء عمودين ضخمين آخرين.

نَظَرَ حاتم لسلاحه فوجد طلقة واحدة متبقية، يا لحظه السيئ! طَفِقَ يبحث في جيوبه عن ذخيرة سيحتاجها بشدة فوجد بضع رصاصات لقّم بها مسدسه الأسود ليمتلئ، أخذ نفسًا عميقًا وهو ينتظر السيارة المتبقية التي كانت وراءهم، والثواني تمرُّ كالأيام.

كان حاتم محظوظًا لدرجة لا تُصدَّق، حيث ظنَّ أن هناك جيشًا من الحراس سيأتيه الآن من مكمنه، لكنه لم يجد سوى اللذين صدمهما بالسيارة وحسب، أمرٌ غريب، لم يعلم حاتم أن باقي رجال وحراس جلال العاشوري كانوا يبحثون عنه في كل مكان كما أمرهم قائدهم، وسيارتان فقط هما من وجداه، ففاجأ حاتم الجميع ليأتي هو إلى معقلهم بنفسه!

توقّع حاتم مجيء باقي رجال جلال العاشوري في أي وقت، لذلك حاول جاهدًا أن ينظر فقط بترقّب وتركيز تجاه البوابة المدمَّرة وينسى أمر ذلك الجيش القادم في الطريق، وهنا وفي هذا الوقت ظهرت السيارة مسرعةً يخرج منها رجلٌ يحمل سلاح رشاش صغير، فنظر له حاتم بغضب وابتسامة تحقير ارتسمت على وجهه.

وجه حاتم سلاحه نحو السائق وهو يُدقِّق نحو الهدف متذكرًا مرّات تدريبه على فعل أشياء مثل هذه الأمور، ثم أطلق رصاصته الذهبية التي رآها أمام عينيه وكأنها تسير أمامه في مشهد بطيء، لتستقرَّ في جبهة سائق السيارة، ومن ثم تنحدر السيارة وتنقلب رأسًا على عقب لتستقر على رأسها وتسكن..هي الأخرى.

شعر حاتم أن الأمر قد انتهى أخيرًا، فزفر زفرةَ الارتياح وهو يبتسم ابتسامة بلهاء مما قام به، ثم توجه سريعًا نحو السيارة التي انقلبت، وعندما وصل إليها وجد الرجل الذي كان يحمل السلاح الرشاش مضرّجًا بالدماء ولا يزال يتحرك ويحاول إنقاذ نفسه، فأطلق حاتم رصاصته مكتومة الصوت لتستقر بين عيني الرجل ليسافر لمكانٍ بعيدٍ للأبد.

أخيرًا انتهى الأمر، قالها في نفسه وهو يبتسم ابتسامة النصر، ثم تراجع وهمّ بأن يلتفت لكن...

فجأةً تلقى حاتم عيارًا ناريًّا في قدمه اليسرى ليسقط على ركبتيه، فالتفتَ سريعًا ووجه سلاحه نحو مطلق النار وتفاجأ حاتم بأن من أطلق النار هو «جلال العاشوري»! فلم يفكر كثيرًا وضغط على الزناد ليصيب كتف جلال فوقع على الأرض هو الآخر، ثم ردَّ جلال الطلقة لتستقر في كتف حاتم اليمنى ويصرخ متأوِّهًا، الآن كلاهما يسقط على الأرض ويواجه الآخر مضرجًا بالدماء.

ارتسمت ابتسامة غريبة على وجه جلال، فلاحظها حاتم وهو يتأوَّه، ولم يفهم شيئًا، فأمسك جلال بكُمّ بدلته وبدأ يتحامل على نفسه ويرفعه حتى كوعه ليُظْهِرَ جُرحَ ساعده البارز القديم، نظر له حاتم فارغًا فاه بعدم تصديق واستيعاب!

قتل، اغتيال، مهمات، ذبح، اتصالات، مال. أشياء كثيرة مرّت أمام عيني حاتم مُذكّرة إياه بمشاهد عدة.. نَطَقَ جلال بصعوبة وقد بدا عليه شدة الإعياء:

- لحقت تنساني يا علي!

سكت قليلًا يتأوَّه، ثم أكمل بغضب وأسنانه تصطكُّ ببعضها البعض:

- عمري ما نسيتك ولا نسيت آخد حقي منك!

أنهاها وهو يتأوَّه من شدة الألم، ثم ابتسم برضا وكأنه فعل ما كان يريد فعله في حياته ويختمها به ظنًّا منه أنه إن مات الآن فلا فارق، وقتها انفجرت الدهشة في وجه حاتم غير مصدقٍ لأي شيء ألبتة.

كيف؟! ومتى؟! ومن أين؟!

ظلّت الأسئلة مبعثرة مشتتة داخل ذهنه الأكثر تشتتًا، ثم ظهرت.

ظهرت «تالا» وهي تحمل مسدسًا أبيض وتسير تجاههما بخطى واثقة.. متى وكيف جاءت إلى هنا ولماذا؟! قتلت هذه الأسئلة تفكير حاتم.

عندما وصلت لم تركع على قدميها لتبكي على ماحدث لأبيها أو صديقها حاتم أو أي شيء آخر، ولكنها صرخت في وجه أبيها تبكي بحرقة:

- ليه؟! ليه؟! ليه بتعمل فيا كده؟! ليه كل الحرام اللي عملته ده؟!

سكتت ثانيةً لتمسح دموعها ثم أكملت:

- وأنا اللي كنت بحسب نفسي باكل واشرب من فلوس حلال! لا وطلعت يهودي كمان! يهودي يا بابا؟! يهودي؟! عشان كده مشوفتكش بتركعها قبل كده! ليه مقولتليش على حقيقتك؟ ولا حقيقتي؟! ولا؟!

أسكتتها الدموع ثم أكملت:

- ليه؟! ليه مقولتش إن مامي عايشة وقولتلي أنها ماتت من زمان؟! ليه؟! ليه ربتني على كدبة من ساعة ما شفت الدنيا؟! ليه؟!

سكتت قليلًا تمسح دموعها ومخاطها ثم أكملت تُوجِّه الكلام لحاتم:

- وانت يا حاتم، والله كنت بحبك، وكان نفسي اتجوزك. صمتت قليلًا لتكمل:

- عارف يا حاتم! أنا والله كنت هعترفلك بحبي النهاردة بس بدل ما أفرح..مُتّ من جوّا، عرفت أنك قاتل! قاتل يا حاتم؟! ليه؟! حتى أنت يا حاتم!، قاتل! هو مفيش حد نضيف في حياتي أبدًا؟! خالص كده؟!

صمتتْ ثانيةً ثم أكملت:

- عارفين!

سكتت مرة أخرى تمسح دموعها، وجلال وحاتم غارقان بدمائهما وينظران لها بأسى، ثم ابتسمت لتصرخ بعلو صوتها وهي تطلق النار على أبيها وحاتم بشراهة وهي مغمضة العينين:

- أنا بكرهكم أنتم الاتنين، بكرهكم، بكرهكم!

أفرغت الذخيرة في جسديهما وهي تكرر تلك الكلمة بيأس، ثم ارتمت على الأرض تبكي بشكل هيستيري وهي ما زالت تُمسك بالمسدس، فسكنت ثانيةً فجأةً وهي تبتسم ابتسامة خلاص غريبة، ثم أدخلت ماسورة المسدس الأبيض في فمها وأغمضت عينيها لتضغط على الزناد وينطفئ الضوء من عينيها وإلى الأبد وتنتهي حياتها البائسة دون رجعة.

صَرَخَ «الظلم» بغضب:

- أترون ما حدث؟! عوضًا عن أن يتفككوا ويتفرقوا ويكره بعضهم بعضًا توحدوا من جديد، ويبدو أنهم قد عادوا أقوى مما كانوا حتى، هذا لأنهم اتحدوا ورجعوا إلى أصلهم، أتعلمون أمرًا؟! يجب علينا التعلمُّ منهم.

سكت ثانيةً فنطق عضو كبير في السن يُدعى «الفساد»:

- ولكن سيدي الرئيس، نحن لن نكل ولن نمل حتى نُحْكِمَ قبضتنا عليهم، ونسقطهم للأبد، كلٌّ له يومه، هذا يومهم وغدًا يومنا!

ردَّ عليه «الظلم» وهو ينظر للأرض ويهزُّ رأسه:

- ما تعلمته في هذا الدرس: عندما يسقط هؤلاء لا يتعبون ولا ييأسون، ولكنهم يعودون وبشكل أقوى، يعودون بالإيمان بربهم، ألم أقل لكم عندما قلتم إنهم سيقعون دون رجعة أنني:

(لا أظنُّ ذلك)!

أنت الظلم، وأنت الاستعباد، أنت كلُّ سيئٍ أُقيم وسيُقام على أرض هذا الكوكب، أنت الرذيلة، أنت الظلام، أنت الخوف والتمرد، أنت الجانب السيئ جدًّا، أنت أيضًا الاستبداد، والبلاء، أنت التلوث، القتل، القبر، الحقد، أنت العِرق والمذهب، أنت الكبرياء والباطل، أنت العصيان والعراك، أنت الخيانة والكراهية، أنت الفساد، أنت الخيبة، أنت الفشل والغفلة، أنت السحر والكذب، لقد عرفتُك، عرفتُ مَن تكون جيدًا.. أنتَ الشيطان.

هذه هي إجابة سؤالك

نظر الاثنان لبعضهما البعض في ذهول وذعر، كلٌّ منهما يتشبث بعمود الفيلا ولا يريد تركه، في هذا الوقت بال أنس على نفسه لا إراديًّا، فلاحظ سعد سقوط قطراتٍ ما على الأرض فحولّ سعد نظره إلى بنطال أنس فرآه مبتلًا، فرفع رأسه ببطء ليقابل عين أنس مرة أخرى مندهلًا والابتسامة تنقض على وجهه، فقال أنس راجيًا:

- هتقول لحد؟!

لم يقدر سعد على الصمت، فطَفِقَ يضحك بشراهة حتى اقترب أن يقع على الأرض، ثم قال بعدما هدأ:

- بشرط واحد!

هَزَّ أنس رأسه سريعًا ومتسائلًا، فأكمل سعد:

- إلعب عشرة ضغط وبعدين حصلني.

أنهى سعد جملته ثم تركه فاغرًا فاه ونزل سلم المدخل الصغير، فناداه أنس قائلًا وهو يلوح بيده:

- ليه كده؟!

سكت برهةً ثم أكمل:

- طب على فين؟!

وقف سعد عندما اقترب من الباب الأمامي لسيارة المرسيدس السوداء، ليشير عليها ويبتسم، فابتسم أنس هو الآخر متعجبًا، ثم نزل أرضًا ليقوم بعمل العشر ضغطات سريعًا، فابتسم سعد مرة أخرى عندما رأى صديقه بهذا المنظر ثم فتح باب السيارة وجلس خلف المقود.

***

بعد أقل من دقيقة كان أنس يفتح الباب لاهثًا وحاله كمن ركض عدة كيلومترات دون توقف، وعندما همّ بالجلوس أوقفه سعد ملوحًا بيده:

- لا لا عندك! رايح فين؟!

سأله أنس مفاجَئًا:

- إيه يا بني؟!

- إنت عايز تقعد في العربية دي! بالمنظر ده!

وأشار إلى بنطال أنس، فرد أنس بعصبية:

- يعني أعمل إيه طيب؟!

لم يرد عليه سعد بل نقل نظره لليسار وهو يشير برأسه نحو الجثث، فصرخ أنس فيه:

- إنت اهبل؟!! عايزني ألبس لبس ناس مقتولة؟!

رد عليه سعد بإنكار وهو يرفع كتفيه:

- وماله؟! وحش؟!

زَمْجَرَ أنس في غضب وهو يزفر ويضغط على أسنانه ثم اتجه بخطى واسعة نحو الجثث الثلاث: جلال وحاتم وتالا، وندما وصل راح بنظره نحو حاتم الذي وجده أنيقًا، فاختاره.

***

بصعوبةٍ يتنفس، شُلّ لثانيةٍ وهو يُمسك بمقود السيارة، ثم رُفع رأسه للأعلى عنوةً وكأن يدًا ما تُمسك به وتجذبه لأعلى، حينها شعر بوخزٍ في صدره وكأن حريقًا مفاجئًا اشتعل فيه، أحسّ بحركةٍ مُرعبة وكأن هناك ثعابين

تتراقص على جسده الغض وتحوم في كل الاتجاهات بسرعة غريبة، كلُّ هذا وهو غير قادرٍ على الحراك، وفجأةً وهو على هذا الحال ذهبَ الألم سريعًا وكأن الرياح أطاحت به في لحظةٍ واحدة، استطاع سعد وقتها تحريك جسده بشكل طبيعي، فهبطَ رأسه وأخذ يتنفس بشراهة ويلهث، ثم نظر سريعًا لصدره بعدها فلم يجد شيئًا ألبتة، فهدأ وسكن، كلّ شيء عاد كما هو، وكأن شيئًا لم يكن..كيف حدث ذلك ولماذا؟! لم يعرف سعد تفسيرًا للأمر، لكنه ابتسم بأريحية لذلك.

***

فتح باب السيارة وجلس على الكرسي وهو مشمئز مما فعله، فنظر له سعد مبتسماً بخبث، وقال:

- ألف مبروك يا عريس!

كتم أنس غيظه ولم يرد عليه واكتفى بالنظر من نافذته القريبة، فأدار سعد السيارة وتحرك بها وعندما اقترب من الجثث ورآها، قال بدهشة وقد تملكه الذهول حين رأى حاتم عارياً كلياً سوى من قميصه:

- يخربيييييتك، انت خدت البوكسر بتاعه كمان؟!

نظر له أنس مبتسماً بخجل وهو يقول بصوت خافت سمعه سعد:

- أعمل إيه! مابعرفش ألبس بنطلون من غيره!

ضحك الاثنان بشراهة وهما يتخبطان في بعضهما البعض، فكبس أحدهما على مشغل «الكاسيت» بالخطأ، ليصمت الاثنان ويعلو صوته النقي:

أحبك تبتدي البدايات..

تاخدني ضحكتك بالذات..

تعيدني روح وقلب وذات..

قطع أنس الأغنية بصوته يسأل:

- مش ده علي الحجار برده؟!

أومأ له سعد بالإيجاب دون أن ينطق، ليستمع مبتسماً لباقي الأغنية وهو يحرك رأسه مع الإيقاع منسجماً.

تزيدني كشف للمستور..

أحبك ضي روحي يبان..

وأعبر ضلمة الحرمان..

وأهجر غابة الأحزان..

وأحقق حلمنا المسحور.

***

انتهى حسن مما كان يفعل، حيث استمرَّ أسبوعين كاملين من الشقاء والتعب والسهر كي يخلّف في النهاية رزمةً من الورق تحوي حروفه وما كتب، كان الطبيب عمر يأتي إليه في كل صباحٍ، ولكن حسن كان يرفض دخوله في كل مرة، وحينها كان الطبيب يرضى بصدر رحب أن يتركه وشأنه.. وفي هذا الصباح المشرق من هذا اليوم عندما دخل الطبيب عمر على حسن وجده نائمًا على سريره مبتسمًا ومغمض العينين، فابتسم الطبيب لأول مرةٍ تكون فيها بسمته حقيقية غير مصطنعة، شعر حسن بوجوده بالطبع فأشار بيديه على رزمة الورق دون أن يفتح عينيه، فتوجّه الطبيب عمر نحوها مبتسمًا وهمّ أن يأخذها بيديه رغم أنه لم يخطر على باله، هل كتب حسن عن الصور حقًّا أم فعل مثل ما كان يفعل دائمًا؟! لكن بسمة حسن طمأنت الطبيب عمر، فرفعها عن المكتب برفق ليرى على الغلاف كلمة كبيرة:

إليها.

***

بعدما انتهى من قراءتها خرج هائمًا من مكتبه بالمستشفى ليلًا، خطرت له فكرة غريبة، ثم اتصل بعدها الطبيب عمر فرحًا بصديقٍ له علاقة بالقراءة والنقد والكتب ودور نشرها ليطلب منه قراءة هذه الأوراق ويسمع تعليقه

عليها، تحدثا في الموضوع طويلًا وسرد له عمر الحكاية كاملة، لم يرفض صديقه الناقد طلبه بالطبع، بل طلب منه إحضاراها غدًا صباحًا إن سنحت له الفرصة ليقوم بالأمر سريعًا.

***

في صباح اليوم التالي أخذ عمر رزمة الأوراق وتوجَّه نحو بيت صديقه. جلسا معًا دقائق قليلة، ثم انصرف الطبيب لعمله بعدما سلّم صديقه رزمة الأوراق وودّعا بعضهما البعض. الأمر الذي طمأن عمر هو أن صديقه وعده بإخباره بتعليقه في أقرب وقت.

ذهب الطبيب لعمله وأدّى وظيفته على أكمل وجه مبتسمًا في أوجه المرضى وزملائه العاملين على غير العادة. كان زملاؤه يسألونه عن السبب، لكنه لا يرد دائمًا ويكتفي بالابتسام، في حين أنه كلما سنحت له الفرصة مرّ على غرفة حسن ليلقي عليه نظرة فخرٍ وسعادة، حيث شعر أنه نجح في الأمر أخيرًا، لكن حسن لم يتغير وضعه عن النظر جامدَ الوجه للسقف.. في كل مرة.

في المساء، جاء الناقد لبيت صديقه الطبيب عمر، فرحّب به الطبيب بحفاوة وهو مندهش لهذه المفاجأة، ثم جلسا معًا واستمرا في الحديث حتى:

- هذا الرجل يكافح يا صديقي.

أومأ له عمر مستفهمًا، فأكمل صديقه:

– بما أني مُدمن لتحليل أي شيء، أتسمح لي بتحليلٍ، بعد قراءتي تلك؟

أشار له بأن تفضّل، فاستطرد الناقد:

– الأمر مجرد هواية فاعذرني إن أخطأت.

ابتسم الاثنان، فأكمل الناقد:

– في البداية، يُظهر لنا حسن تجسيدًا لروحه على هيئة ذلك الرجل الذي يُعاني الوحدة والكآبة القاتلة وهو ما يُدعى «سعد»، وبعدما تفوّق قليلًا على نفسه أظهر لنا شخصية «أنس» ذلك الشاب الذي يبتسم دائمًا رغم ما يكنُّ في صدره، وبعد قليل تنبعث لنا صورة «حاتم» القاتل ليعيش قصته وكأنه يحاول قتل تلك الأمور السيئة التي تسكن قلبه، وهذا وإن دلّ فإنما يدلُّ على أنه ما زال يُقاوم، ربما أظهر للجميع جانبًا شريرًا، لكنني أظنُّ أنه من فئة الخير.

صمت مبتسمًا ثم أكمل:

– ظهرت شجاعته ونيةُ المقاومةِ وكسبِ الحرب أيضًا عندما حاول جاهدًا أن يغير من سعد ليجعله بطلًا، لا أجزم أنه نجح في ذلك، لكن...

نَظَرَ صديق الطبيب عمر للشرفة ثم أكمل وهو يبتسم:

– حسن هو سعد يائسًا، وهو أنس محاولًا، وهو حاتم أيضًا مقاتلًا في بعض الأحيان، وربما تكون أم سعد هي المجاهد والصابر والراضي لروح حسن، جلال العاشوري، تالا، وحتى زيكو، ذلك العجوز الذي أعجبتني

شخصيته بغرابتها، كلهم حسن بانطباعاته ودواخله ونياته وعواطفه، حيث مزج ذلك الرجل كل الشخصيات الخَيّر منها والشرير ببعضها البعض، وبالطبع كان هذا دليلًا على صراعه الداخلي، يا صديقي هذا الرجل كافح محاولًا أن ينتصر، لا أنكر أنه لم يَفُزْ، ولا أنكر أيضًا أنه لم يخسر، لكنه بين البينين، وكما يقولون: «لا تنزعج من حربٍ أنضجتك».

أنهاها ببسمةٍ، فأومأ عمر موافقًا صديقه الرأي، ثم انفرد الصمت بالمكان قليلًا لينطق عمر بعدها:

- إذن أعجبتك؟!

- لا أخفي عليك سِرًّا، لقد أسرتني هذه الأوراق بقصتها الغريبة المتناقضة، لم أتركها من يدي منذ بدأت فيها، ربما لديَّ بعض التعليقات، لكن في مجملها هي جيدة.

أشار عمر لصديقه بالمتابعة، فأكمل:

- هذه من أغرب الروايات التي قرأتُها! بالطبع أسلوبه جيد فيها، كلماته متناغمة أحيانًا، وأحيانًا ليست كذلك، الأحداث أيضًا مواكبة لبعضها البعض، وأحيانًا لاأمبتذلة في بعض الأحايين وبعضها ينكر ذلك من عظمتها، لكن.. هناك شيء لا أدري ما هو بالضبط لكنه يضعفها قليلًا، أشعر أن شخصين كتبا تلك الحروف وليس واحداً أبداً، فهو لم يظهر حتى علة الفكرة وسببها، فلم يتم الربط بين البداية والنهاية الغريبة! فما علاقة كوابيس البطل

سعد بأنه الشخص المختار وما آلت إليه الأمور في النهاية بموت الجميع؟! ولِمَ سعد هو مختارٌ أصلًا؟ ومَن هذه المرأة التي كان يراها بحلمه؟ ولماذا كانت تأتيه؟ لماذا مات أبو سعد وهو صغير ناقصَ العمر كما قال المشعوذ؟ وما فائدة المشعوذ أساسًا؟ وما علاقة سعد بحاتم؟ هل حرف الـ(K) على صدر سعد له علاقة بخاتم حاتم لنفس الحرف؟ ولماذا كان جلال العاشوري هذا يكنّ لحاتم الانتقام؟ هل من الممكن أن يصبح المرءُ قاتلًا شريرًا ولكنه يحمل بين أضلعه الخير، أو العكس؟! كأنني أرى فيلمًا هنديًّا دُونَ مخرجٍ أو كاتب حتى! هناك تفكُّك في الشخصيات وبنائها، وتكسر في الأحداثٍ وترتيبها، يوجد أيضًا الكثير من الأسئلة والأشياء التي لم يجب عنها، وربما هناك بعض السذاجة هنا أو هناك – على ما أظنُّ، أرى أن حبكتها ضعيفة قليلًا أو كثيرًا، ربما يُعلَّل ذلك بأنه مريضٌ نفسيٌّ مشوّشُ التفكير، لكن في النهاية – وهذا أمرٌ غريبٌ عليّ لأقوله – هذا الشيء فوق الجيد في المجمل، سيأسِرُ الكثير من الناس – إن ابتعدنا عن النقاد – لو نشرنا قصته كاملة بالإضافة إلى هذه الرزمة، فهم يعرفون قصور الرواية ويعرفون سببها أيضًا.

صمتَ ثم أكملَ:

– الناسُ يحبون الأشياءَ الغريبة، الأشياء التي تحدث دون سببٍ وجيه، وبالطبع سيحبون قراءتها لو علموا أن مَن كتبها مريضٌ نفسي حاول الانتحار من قبل!

صمتَ قليلًا ليكمل بشغف:

- لماذا لا نقوم بنشرها؟!

***

اهتمَّ صديق عمر بالأمر وتحدّث مع معارفه، فانتهى الأمر بالاتفاق مع دار نشر مغمورة وأتمّوا العقد بل طبعوا نسخة تجريبية أيضًا، استثار الأمر الدار حيث رأت أن هذه فرصتها للصعود وإثارة الصخب بين الناس، فرح الطبيب عمر كثيرًا بذلك أيضًا وشعر أنه أنْجَزَ شيئًا عظيمًا، وصار مبتسمًا دائمًا على خِلاف ماضيه.

في شمسِ اليوم التالي ارتدى الطبيب ملابسه وضبط هندامه، ثم وضع عطرًا يفضله ومشّط شعره للوراء ومن ثم ابتسم للمرآة.

رَكِبَ سيارته الصغيرة ووضع النسخة التجريبية بجانبه على الكرسي وصار ينظر إليها عدة مراتٍ، وكان يبتسم في كل مرة، سوف يُفاجأ حسن بهذه النسخة من قصته، وبالتأكيد سيسعد كثيرًا، وربما يبكي فرحًا، وربما يحتضن عمرَ احتضانًا، ومن ثم يُشفى ويعود كما كان لحياته، ويبدأ رحلةً جديدةً في الحياة.

توجّه نحو بوابة المستشفى بعدما تنفس الصُّعداء أمام سيارته، حيّا جميع زملاءه عند دخوله بفرحة عارمة، ثم سار بخطوات واثقة نحو غرفة حسن القابعة في آخر الرواق في منطقةٍ لا يمرُّ فيها إلا القليل ليتوقف أمام بابها ويطرق على الباب عدة طرقات خفيضة، لم يرد حسن عليه، فظنَّ عمر أنه نائم، وهمّ بفتح الباب وحده، ثم دخل لينظر للسقف، فاغرًا فاه، فتسقط نسخة القصة على الأرض، ثم يلحق بها عمر ساقطًا على ركبتيه ودموعه تسبق الجميع في السقوط، حسن..

شَنَقَ..

نفسَه..

وبجانبه كتبَ على الحائط بخط عشوائي يملأ المكان:

هذا العالمُ السوداويّ، لا أنوي أن أعيشَ فيه لحظةً واحدةً أخرى.

تمت